(على هامش الرواية).

الرواية مستوحاة من أحداث تاريخية

وليست كتاب تاريخ يُؤخذ به؛

فبعض الشخصيات المذكورة

من وحي خيال الكاتب.

إهـــداء

إلى كلِّ اعوجاجةٍ استقمتُ لها لتستقيمَ كلماتي..

إلى كلِّ ألمٍ لملمَني ليـُلهمَ قلمي بعد كلِّ شتاتي..

إلى كلِّ ضعفٍ خارت به قواي لتشتدَ حروفي..

إلى كلِّ ضبابٍ أخفى الضياءَ عن بصري..

ليُبصرَ فؤادي!

مقدمة

يموجُ في فراشِه كموجِ البحر العاصف التي تنْتفض قسماتُه، يتأملُ جذعَ شجرةٍ جافًّا مهترئًا يتخلله شقوقٌ عميقة، قابضٌ عليه بأحد ساعديه بقوةٍ، خشية أن يتفلّت منه فيسقُط، حتى سمع صوت خشْخشْةِ تهشُّمِ الجذْع، أطلَّ برأْسِه إلى أسفل ليرى أنه على ارتفاعٍ شاهقٍ، لا يستطيع أن يميز هلْ هو ناعسٍ أم واعٍ أم في السِّنة منَ النَّوم، أفاق منْ نومه فزِعًا لاهثًا يتصبَّبُ عرقًا، ارْتشفَ قليلًا منَ الماء، هتف بصوتٍ قلقٍ لأحدٍ من العبيد القائمين على خِدمتِه، أمرَهُ أن يأتي بالحكيم ليفسر له هذا الحُلْمَ الذي رآه، وسرعان ما جاء الفتى بالحكيم، وقصَّ عليه الحُلْمَ بجُلِّ تفاصيله، صمت الحكيم هنيهة وبدا على وجهه الارتباك، أصر الخليفة على أن يَعلمَ تفسيرَ الحُلْمِ، هزَّ الحكيم رأسَه وأرْدف، قائلًا:

أما تهشُّمُ الجذعِ فهو يُشير إلى فتنةٍ عظيمة، أنْت يا أمير المؤمنين أحد طرفيها، ولكنْ أبشِر خيرًا!

واستأْذن سريعًا وغادر؛ مما زاد من توجّسِ وقلقِ الخليفة أكثر. يعلم الحكيم جيدًا مدلول الحُلمِ ولكنه فضَّل الصمتَ حتى لا يُشعرَ الخليفةَ بالقلق؛ فالرؤيا تدل على قرب سقوط وانتهاء ولاية "الخليفة الأمين"، بسبب الفتنة القائمة بينه وبين أخيه "المأْمون"، وأن النصرة والغلبة ستكون "للمأمون"، وسيكون هو الخليفة القادم على بغداد.

ظلت " ضُعف" تشدو بالغناء بصوتٍ مجلجلٍ صدّاحٍ عذْبٍ يحرك الداخلَ ويجعله يسكن كهدوء الليل، تسترقُّ لها القلوب قبلَ الآذانِ بسحرٍ مبثوثٍ، تلك الجارية المفضلة لدى "إبراهيم المهدي" عمِّ "الخليفة الأمين" وصديقِه المقرب، ابتاعها من سوق النِّخاسة حيثُ رأى فيها من الجمال والذكاء والصوت الحَسن، ذوق "الخليفة الأمين" الذي كان شديدَ الولعِ بالأدب والشِّعر والغِناء، وكان يمْلك من الجاريات فصيحاتِ اللسان الكثيراتِ

منْهن، كان يبتاعهن بأثمانٍ غالية، ويقيم على شرفِهم المجالس المترفة في قصره القريب منْ شاطئ دجلة.

وفي ليل يومٍ تلثَّم قمرُه بسحابةٍ ظلْماء وترقعتْ سماؤه بثيابٍ رماديَّةٍ أخفتْ بها النجوم، ظل الخليفة الأمين يحملق في السماء كأنه يراها المرة الأولى، وبالكاد رأى نجمتين تلتمعان في سماء حديقته الرَّحباء، التي اتخذت بجانب نهْر بغداد مكانًا عليًّا.

راقب نجمةٍ منهما بدا شعاعها يخفُت شيئًا فشيئًا، في نفس الوقت سمع صوتًا يُردد في أذنيه (قُضي الأمرُ الذي فيه تستفتيانِ)، قُبِض قلبه وتبدلت ملامحه، وركض مسرعًا إلى داخل بلاط قصره، وبصوتٍ لا يكاد يُسمع، قال لصديقِه وعمِّه "إبراهيم المهدي": "هل سمعت هذا الصوت"؟ قال: لا، لم أسمع شيئًا يا أمير المؤمنين، ربما يُهيأ لك فلا يوجد في الجلسة سوانا... سأنادي الجارية(ضُعف) تُنشِد لنا بعض الكلمات، علها تصرفك عما أنت فيه. بدأت "ضُعف" تشدو بالغِناء لشاعرٍ معلومٍ حينها بكلماتٍ عن وداع الأحبة وفراقهم المحتوم!

وبنبرةٍ يملأها الغضب، قال لها "الخليفة الأمين": لعنك الله يا فتاة أنتِ واسمكِ! قومي سامحك الله، بدا على وجهه التطيُّر وأشار بسبابته، وهو يقول: "أراه يراقبني". سأله "المهدي": "وما الذي يراقبك يا أمير المؤمنين"؟! قال "الموت"!

ترك الخليفة المجلس مزمجرًا غاضبًا، ودَّع ابْنيه وقبَّل رأسيهما وبكى، وهو يملِّس على شعر ابنِه موسى، همس في أذنيه، قائلًا:

- أوصيك يا بُني بنفسك وأخيك، كن له العضُد والسَّند، لا تخسره على مالٍ ولا على ملك، لا تدعِ الذئاب تأكل من رأْسك، وتتراقص الثعالب على خيباتك، كن ظبيًا مسالمًا مع أخيك وأسدًا شرسًا على أعدائه قبل أعدائك.

اتشح "الأمين" برداء التخفي الذي كثيرًا ما يرتديه حينما يريد أن يختلط بالعامة من أهل المدينة، عازمًا الذهاب إلى قبر والده الخليفة هارون الرشيد، امتطى فرسه "المُسمَّر"، وفي طريقه اختلط اهتزام فرسه بصوت المجانيق والأسهم النارية.

تصارع الجمع الغفير من أهل المدينة على آخر صومعتين من الدقيق، رأى السراويل تُمزَّق والشباب تتطاحن، والنساء تعول والأطفال تختبئ خلف ستار الأمهات وأعينهم تملأها الفزع، جرَّاء الحرب الضارية التي بكت خلالها مدينة السلام وبكى سكانها على مدار ثلاث ليالٍ متواصلة، ساد الهرج والمرج في المدينة، وقتها أدرك "الخليفة الأمين" نتيجة أفعاله، وبطانة السوء التي أشعلت الفتنة والغيرة والطمع في قلبه.

حطَّ بقدميه مقابر الخيزران التي يقبع فيها جسدُ أبيه هارون الرشيد، سُمِّيت المقابر باسم جدته الخيزران تيمنًا بها، وتخليدًا لسيرتها، ظل يتأمل قبريهما وعيناه تملأهما الحسرة نادمًا يبكي، مطأطئ الرأس جاثيًا على ركبتيه، قائلًا: السلام عليك يا أمير المؤمنين، عزَّ مقامك وطيَّب الله ثراك، ضاقت بي يا أبي الأرض بما رحُبَتْ، هأنذا على شفا جرفٍ هارٍ، فكم زلَّ من عزيزٍ واضمحلت أماله!

أشكو ما ألمَّ بي من اليأس والجزع، هاهو الجذع تهشَّم وأنا على وشك السقوط في جُبِّ الذُّل لم يلتقطني أحد السيارة، قُتلت بهم الرغبة في إنقاذي بسيف الغرور!

أشكو ضعفي وهواني على البشر، سامحك الله يا أبي! هل قلتَ: "لا تركن لوزيرٍ لمح في عينيك الطمع"؟

أو قلتَ: "لا تركن لأمٍ ملكت وليدها رفعةً وجاهًا على حساب الأمم"؟ هل قلتَ: "لا تتعاظم بحسبك ونسبك وتقول إنك ابن خليفة ومدادك للرسول"؟

أسميتَ حفيدك "الناطق بالحق"، ولمْ أجرؤ أنا على النطق به، هل قلت لأتفاخر بسيفك المرصع بالذهب والفضة؟

أنا "الخليفة الأمين" ابن الخليفة هارون الرشيد، اجتمعت لي أسباب الولاية كما لم تجتمع لأحد، نكثتُ العهدَ والوعد، تصيدني الطمعُ بخنْجرٍ مسموم سرى بأوصالي على مَهَلٍ، رزقتُ الكفافُ ولم يكفِني.

وما الذُّلُّ إلا في الغرور!

وما الذُّلُّ إلا في الطمع!

الفصل الأول

أبو نواس

بكلماتٍ مملوءة بالأسى والشجن، رثى "أبو نواس" "الخليفة الأمين"، وبكاه بشدة خاطره ذاك اليوم الذي جلس معه في بلاط قصره منذ عدة أشهر، عندما عرض عليه الأمين أنْ يؤلف له أبياتًا متفرقاتٍ من الشعر، شريطة أن يبدأ كل بيت باسم من أسماء الجواري التي يمتلكها الأمين، في تحدٍّ منه "لأبي نواس" أن يستلْهم من أسماء جواريه أبياتًا شعرية رائقة، تشعل أجيج الفصاحة والبلاغة في المجلس كنوعٍ من التسلية والتسامر، ولم يلبث "أبو نواس" إلا أنْ سحر الجميع بقوة بيانه وأدبه المعهود به دائمًا، تزداد حماسة "أبو نواس" بيتـًا تلو الآخر، ليهلل الخليفة الأمين، بصوتٍ يملأه الإعجاب والنشوة:

- "أزد يا أبا نُواس .. لو جلسنا للصباح والله ما اكتفينا"! حتى وصل إلى جارية تُسمى "جنان"، توقف فجأة عن إلقاء الشعر وانخرط في البكاء بشدة. تأثر الأمين لبكاء أبي نواس، حتى صرف الجميع محاولًا فهم ما ألمَّ بفؤاده جعله يبكي لهذه الدرجة!

_ أخبرني يا أبا نواس، ما الذي يبكيك؟

أراك أكثر الرجال سعادة، تصول وتجول في بلدانٍ عدة لا يمنعك ملكك ولا سلطانك، فضلًا عن قصرك الزاخر بغرفِه المشدوهة وأعمدته المرصعة بالعقيق والمرمر؛ فأما القصر فهو بلاغتك وفصاحة لسانك، وأما أعمدته فهي أحرفك القويمة، ألا من يشبهك يا رجل تؤلف كلمات الشعر بل وتتغنى بها!

ارتسم على وجه أبي نواس ابتسامة ميتة، يُدفع بها رغمًا عنه، لنفسه المذبوحة وفؤاده المنكسر كجناح طائرٍ مسكين فقد قدرته على الطيران.
همس بصوت أبحّ وأعذب:

ـ أبكي زهرة غابت عن بستاني!

كثيرًا ما أشعلتْ ذاك اللهيب المضن في وجداني، دونها مماتي، وهل تراني أحيا يا أمير المؤمنين؟! والله ما أنا بحي ..ما أنا بحي، هل أتوهم حبها؟

إذًا لِمَ يشع ذاك الوجه نورًا كنجمٍ وضاء، يخفي وهجه عن الجميع وينير لشخصٍ واحد وهو أنا؟!..

لِمَ تصفعني بنظرات القلق والعتاب عندما أغيب؟!..

لِمَ عندما تناديني أذوب في أبحرها كأنها تنظم شعرًا، مغمض العينين، أستمع لتلك النبرات المرهفة، متلعثمةً من شدة الخجل؟!

لا طوعًا أسقيها من خمر الحب والغزل، ولا طوعًا أبقيها بين أضلعي، ولا طوعًا أحب قلبها واسمها ورسمها، فمن منا يملك مستقره ومستودعه ومن يملك قلب المحب إلاه، إن شاء يتركه وإن شاء ينزعه!

وفي ليل يومٍ تلثَّم قمرُه بسحابةٍ ظلماء وترقعت سماؤه بثيابٍ رمادية أخفت بها النجوم، ظل الخليفة الأمين يحملق في السماء كأنه يراها المرة الأولى، وبالكاد رأى نجمتين تلتمعان في سماء حديقته الرحباء، التي اتخذت بجانب نهْر بغداد مكانًا عليًّا.

راقب نجمةٍ منهما بدا شعاعها يخفت شيئًا فشيئًا، في نفس الوقت سمع صوتًا يردد في أذنيه (قُضي الأمرُ الذي فيه تستفتيان)، قُبِض قلبه وتبدلت ملامحه، وركض مسرعًا إلى داخل بلاط قصره، تنهد أبو نواس بآهٍ زلزلت

أوصالَه، لحقِها شلال من الدموع الحارة شقَّت جسرًا على وجنتيه السمرتين، قائلًا بأسًى تلبس كاملَ فؤادِه:

- كفاني من الدنيا ما كفاني، فلا نهاية للمرء سوى ميتة سوية ومردٍ غير مخزٍ... لا والله فهو مخز!

من اليوم لنْ تطأ كأسي المحملة بالخمر المعتق فمي، لا اليوم ولا الغد، سأعكف إلى محرابي وأدعوه أن تكون نهايتي بيضاء صافية كصفاء نهر دجلة ربيع نهارٍ تتمايل أشجارُه حبورًا، وتغرد طيورُه ابتهاجًا، ترى هل سأنتظر لألقى نفس مصيرك يا أمير المؤمنين؟

كثيرًا ما همستَ لي بمكنون نفسك الضائعة وتبعْثرك بين هذا وتلك، أحببت أن تستشير مرارًا وتكرارًا، حتى تمنيتَ ذلك من ابن أبيك "المأمون" فاستشار هو الآخر من يكرهك ويكيل لك، ليت الطرق والمسافات اندثرتْ وتلاشت لتشدَّ عضُدَك بأخيك! ليت المأمون لم يتسرعْ بقتلك!

وهل تستلزم الأخوة عهودًا ومواثيق؟! وهل الدماء التي تسري بعروقكما تسممت وتلوثت بوفاة أبيكما هارون الرشيد؟! وهل ارتاحت الخيزران في مرقدها الآن بعدما أورثت حفيدَيْها القتل والتخوين؟!

أيا خيزران عليك ما تستحقين!

فاز "الفضل بن الربيع" برأيه، فكنت أعمى العقل والفؤاد حينما وافقته، وخسرت أنت يا أمير المؤمنين بخسارتين، ألا وهما: أخيك ورأسك.

يا لك من وزير أعماك الكره لأهل خراسان! أشعلت نار الغيرة في قلب المأمون بلا رحمة لمْ تهتم سوى بنفسك وبمنصبك، أين يمينك الذي أقسمت؟ وولاؤك الذي به عهدتَ؟ فهناك فرقٌ بين من ينصحك وبين من يُضلِّك لتهوي في ظلمات وادٍ سحيق، لا نجاة منه إلا بالموت.

صبيحة اليوم التالي لوفاة الأمين على يد "طاهربن الحسين" أفاق سكان المدينة على خبرٍ صادم أربك الجميع، عندما رأى أحد التجار رأس الخليفة الأمين تتدلى معلقة على أعتاب بوابة خراسان، وهي بوابة ناحية بلاد خراسان، تلك البوابة التي من خلالها اقتحم جنود المأمون أسوار المدينة المدورة المحصنة جدًّا عسكريًّا ببنائها الهندسي الضخم.

الذي أشرف على بنائها جدهما الخليفة المنصور، بتصميم العالم الهندسي الرياضي "إقليدس"، وبعد تلك الليلة التي احتدم فيها الصراع حتى وصل إلى ذروته، تحطَّمَ فيه جزءٌ لا بأس به من بغداد، شهده نهرا دجلة والفرات، منبعا الجنة والخير لأهل بغداد، "مدينة السلام"، وهو الاسم الذي أطلقه عليها الخليفة المنصور عند إعلان بناء تلك المدينة التي تشبه شكل الدائرة، ذات البوابات الأربع العالية التي لا يضاهيها مثيلًا ولا روعة في أنحاء العالم، ذات أسوار سميكة من القرميد والطوب اللبن، يتخللها أوكار، يسهل من خلالها صب الزيت المغلي، ورمي السهام على كل معتدٍ، ولها خندق أُحِيطت به وقد شُقَّت له قناة من نهر "الكرخايا" ليجري فيه الماء ويكون وفيرًا طيلة العام، وهو أيضًا كأحد التحصينات العسكرية، بيد أن مداخلها مزورة؛ أي مائلة، تعرقل سير أحصنة الأعداء، فيسهل على الجنود القبض عليهم بسهولة.

تعهد جنود المأمون للعامة من قاطني المدينة، تجار ونحاتين ونخاسين وورَّاقين؛ أن من التزم بيته فهو آمن. تشرذم البعض منهم منكبين على أعمالهم التي هوتْ إلى الركود بسبب الحرب الدامية، التي قُطِعت فيها الأعناق، احترقتْ فيها الأجساد بفعل الزيت الحارق، رأى الفريقان ألوانًا من العذاب، ترملتِ النساء وتيتمتِ الأطفال وانطلتِ المدينة بمسحة حزن لازمتهم مدة طويلة، فلا يملكون من أمرهم سوى الصمت المزمع والحوقلة كنوع من الطمأنة لأرواحهم المتعبة.

التزم النصارى أديرتهم، كلٌّ في محرابه، يتعبدون ويتوسلون الرب أن ينعم عليهم بالسلام، في حين استشاط البعض غضبًا، عندما سمعوا أخبارًا

تُشي بقتل الخليفة الأمين، فكانت نفوسهم تطمئن به على رغم مساوئه التي يعلمونها ويقرُّونها، ولكن حبهم الشديد لأبيه الخليفة هارون الرشيد، وصلته ونسبه كانوا دومًا يغفرون له أخطاءه، لازم البعض دمارٌ نفسي ساحق، خرج البعض تأثُّرًا بخليفتهم الذي قُتِل غدرًاعلى يد أخيه.

في ذاك الوقت كانت بغداد مجمع العلم والأدب، عبَّر الشعراء عن مكنون أنفسهم بالشعر والنثر في الأسواق والمساجد والدور، حتى أرباب الغناء والموسيقى كان لهم نصيب من التعبير عن رأيهم، أما محبو الأمين فلهم أسباب يتخذونها، فهو يلاحق الزنادقة والملحدين وذلك عندما حارب "قبيلة الجهمية" الملحدة وطردها شر طردة.

يعفو عند المقدرة عمَّن ناله بالنقد اللاذع والتقليل، فكان يترفَّع عن معاقبته، أما البعض الآخر وكانت الفئة الغالبة فترى أن الأمين لا يصلح لحكم بغداد، لسرفه وترفه واستهتاره في بعض المواقف المهمة، وضَعف موقفه في بعض القرارات المحورية، التي تتطلب الحزم والحكمة.

وأن ما حدث له هو تمام العدل والإنصاف، ولاسيما بطانته ووزيره الفضل بن الربيع وأمه "زبيدة"، فكانت ثقته بهما عمياء، وهما من ملآ عقل الأمين بالبغض، ودسَّا في قلبه الشك والشر من جانب أخيه المأمون، لكرههما الشديد لبني خراسان ولخوفهما من تلك النهاية الحتمية، إذا تولى المأمون حكم بغداد.

صار أهل المدينة في تلك السيرة تلكوها الألسنة في البيوت والمجالس وبعد الصلاة وفي الحوانيت والمتاجر، سرتِ الإشاعات الكاذبة تسري كالنار في الهشيم، تعبأ الشوارع والبيوت بجند المأمون، يتفقدون العامة ينظمون الأمن في المدينة بالحكمة واللين، للحكماء والعلماء والمثقفين بأمر من المأمون، معاقبين الخارجين عن طاعته بالسجن مكبلين بأغلال القوة والبأس الصارمَيْن.

بدأ المأمون في تسلُّم زمام الأمور عن طريق المراسلة، من الولاة والقادة والقضاة وهو لا يزال في خراسان، يتهيأ لعرش الخلافة الذي ينتظره في بغداد، وتلك المدينة التي شهدت طفولته ونشأته إلى أن أرسله أبوه هارون الرشيد ليتولى حكم خراسان، الذين يحملون له قدرًا لا بأس به من الترحيب والامتنان، تقديرًا لأمه مراجل التي تشاركهم النسب، بعد أن وصلت الأخبار إلى المأمون، اقترح عليه وزراؤه وقضاته من خراسان بأن يجعل مقر الخلافة في خراسان، تردد "المأمون" في اتخاذ القرار إلى أن استقر أن يكون محل الخلافة بغداد.

وطأ المأمون أرض بغداد، لينفطر فؤاده عندما لاح إلى ناظره، المسجد الكبير، الذي تحطمت قبته الخضراء، التي كثيرًا ما احتضنته في ساحتها. وهو طفل صغير، ومع كل خطوة يخطوها داخل المدينة يرى فيها ما يعتصر فؤاده حزنًا، لائمًا نفسه التي بين جنبيه، ولاعنًا ذاك العرش الذي وسَّد له، يزجُره ضميره ويفتت أوصالَه، ليقسم له ويتعهد أن لن يتوانى حتى يُصلح ذاك الدمار بكل سبيل، وتُمحى عنه تلك الغصة التي يتناسى سببها وماهيتها، ويكأنه يشعر أنه المهزوم لا المنتصر!

صلى المأمون صلاة العصر في المسجد، هو وجنوده وحاشيته، وامتطى جواده متجهًا إلى قصر الخلافة الذي يحْرم دخول ساحته بالأحصنة إلا للخليفة وقائد الحرْس، وكان القصر والمسجد الكبير جنبًا إلى جنب يتوسطان المدينة المدورة (مدينة السلام)، ذاك القصر ذو الجنبات العالية الذي نال بوابَته جانبٌ من الدمار، هشَّمتها المجانيق والحجارة، واستوتْ بالأرض ترابًا.

أنياب الصراع نهشتِ الماضي كما نهشتْ أنياب الضباع صغارها، عندما شعرت بالجوع. فنشوة احتساء الدماء لا تفرِّق بين الأنفس والنفائس كلها عندهم سواء.

وأخيرًا بدأت جنبات "قصر الذهب" تلوح للمأمون من بعيد بقبته الذهبية الفخْمة كعمامةٍ ذهبية اللون لشيخٍ كهْل، تبدو عليه آثار الشقاء والتعب، وصل المأمون إلى القصر، أشار لحاشيته بالانصراف، ليخلوا بنفسه، متأملًا تلك الأستار الخضراء المزركشة، تموج على حريرها خيوط ذهبية وفضية، مكونةً زخرفة نباتية خلابة، رسمت بيد أمهر الخطاطين والفنانين في بغداد، وتلك الثريات الموقدة بالشموع، التي تتدلى من سماء القصر الواسع، ذي الأعمدة المتراصة كأبيات النحل المنظمة.

الوسائد والفرش لم تتغير أماكنها، ظل المأمون يستعيد ذكريات الطفولة، ترنو إلى ذاكراته المواقف واحدة تلو الأخرى، نصائح أبيه هارون الرشيد، نصائح العلماء والشعراء والأدباء الذين تتلمذ على أيديهم.

حُلم حياته في تأليف كتاب فريد، يضع فيه خلاصة ما تعلم وخلاصة المعارك التي خاضها؛ فشخصية المأمون لا تتحمل أن يكون لها مخالفون، يعارضونه أو يثورون عليه وإن لم يخلو الأمر من ذلك كأي خليفة أو حاكم عمومًا له مريدون ومعارضون، وهو وعلى الرغم من ذلك إلا أنه برع في حسم أمور عدة؛ بحزم وحكمة استطاع أن يحوز استحسان طوائف عديدة، ويضمها إلى مصافِّ محبيه ومؤيديه.

زبيدة

بخطواتٍ وئيدة أطل "عُميرو بن الليث" كاتب السِيَر المعروف إلى قصر "باب الذهب" بأمر من المأمون، وهو كاتب سِيَر العُظماء في بغداد الذي يكتب كل صغيرة وكبيرة ويوثِّقها في كتاب السير بعد كل حدث فارقٍ، وكانت تُترجم بجميع اللغات؛ مثل اليونانية والسريانية والتركية. وكان

هذا الكتاب من الكتب المهمة، خصَّص له الخلفاء مكانًا خفيًّا في "بيت الحكمة"، الذي أنشأه هارون الرشيد ليكون مرتعًا ومجْمعًا للعلم والعلماء، يحمل ملايين الكتب في جميع التخصصات، كالفلك والطب والرياضة مرورًا بالأدب والفقه والفلسفة مع بعض الكتب التي يخشون عليها من ملاحقة الزمن لها، ينقِّحون قديمها، يجددونها يتفقدون أحبارها، وما إن نقص حرف من حروفها، يدللون الكتب ويعتنون بها كل مدة من الزمن؛ فهي من الموروثات التي يعتني بها كل خليفة، ويحافظ عليها من أيادي الأعداء، فهي بمنزلة سلاح سري محجوب، يتشدقون حروفه، يتسلحون بها، يضيفون عليها فئاتٍ جديدة وتراجم عديدة.

همهم عُميرو ليلفت انتباه الخليفة، وأردف قائلًا:

ـ السلام عليك يا أمير المؤمنين، ها هو اللوح الذي وثقتُ فيه جميع السير منذ وفاة والدك إلى يومنا هذا، سلمه للمأمون بيدٍ مرتعدة خشية ألا يتوافق ما هو مكتوب هواه، استلمه المأمون بصمت وبدأ يتصفح الوريقات يقربه لأنفه، بدا على وجهه الانتشاء، وهو يقول:

- (يا لها من سيرةٍ عطرة) سيرتك يا أبي، استغرق في القراءة وفجأة تبدلت ملامح وجهه، وتوهجت وجنتاه احمرارًا وهو يردد ما هو مكتوب في الكتاب: "قتل المأمون أخاه الأمين وقطع رأسه وعلقها على مدخل المدينة المدورة"! نظر إلى الكاتب بامتعاض وحنق، وقال له بصوت يملأه الكمد:

- لم أقصد قتله، ربما قتله طمعه وغروره... قاطعه الكاتب بخشوع، قائلًا:

- أقسمت لوالدك أن أكتب السِيَر كاملة بلا تحريف أو تخريف، وهو من صدَّق لي بأن أكتب كل صغيرة وكبيرة ولا أمجِّد أحدًا وأن أعطي كل حقٍ حقه بلا زيادة أو نقصان، استسلم المأمون واضعًا في قرارة نفسه تصحيح تلك النُكبة، التي انفرطت أحداثها من بين يديه على غير المتوقع.

سمع صوتًا غير مفهوم يرنو إلى أذنيه، صوتًا بدا له مألوفًا، أسرع مترجلًا متَّجهًا إلى حديقة القصر، متفحصًا بعينيه كل الأماكن ليقف على مصدر ذاك الصوت الذي يزداد، ولا يستطيع الكشف عن مصدره إلى الآن!

بدأ يتصبَّب عرقًا ويلهثُ عطشًا، ليجد أمامه نافورة حجرية يتصابى منها الماء، فنزع عنه عمامته القطنية السوداء التي تتوسطها جوهرة فيروزية نادرة من حجر الزبرْجد، بدأ المأمون يغمس كامل رأسه في الماء البارد ليهدأ عقله هنيهة عن التفكير، ويتوقف ذاك الصوت المتكرر في أذنيه، رفع المأمون رأسه ليرى خيالًا على الأرض، يمسح الماء عن عينيه بطرف كمه الواسع، يحملق جيدًا فيرى سيدة تفترش ثوبًا أخضر بلون الصبار تشتمه وتتنفسه، حدجها المأمون وهي تنوح وتبكي، يتساقط من عينيها سيل من الدموع المالحة تئتحب وتدعو بصوتٍ متحشرج مسموع:

- لقد فزتِ يا مراجل، أخزاك الله يا بن مراجل، لا وفقك الله ولا سدَّد رميك! يسمع ذاك الصوت منذ علم بقتل أخيه:

- "قتلت ابن أبيك؟! اقتلعت رأسه ومثلت بها يا عبد الله! أخزاك الله يا ابن مراجل"! لم يستطع أن يفرق بين هذا الصوت بداخله وصوت زبيدة أم الأمين، إلا بعد أن اقترب منها يتلفت حوله، ويكأنه مهزوم في معركة قُتلت فيها رحمتُه، يشقى كبدًا مكابرًا، محاولًا تناسي الأمر، ينظر إلى ركنٍ كانت تجلس به جدته الخيزران التي اختلج باطنها الخطر والهلاك بفعل ولدها الهادي فهمَّت بقتله، تتعلَّل بأنه يُمثل خطرًا على الخلافة، وعلى العامة من البشر، ويكأنه فرع شجرة فاسدٌ معدٍ لابد من جزّه، قبل أن ينال من الشجرة بكاملها فيقتلعها من جذورها بلا هوادة.

"لم أقتله"!!

قالها المأمون وكررها وفي كل مرة يتعالى صوته تأكيدًا وإصرارًا "والله ما أنا بقاتله، هو من قتل نفسه واستهان بها، تجرأ على ما خطَّه أبونا، نكث العهد ومزقه شر ممزق"!

لمْلمَت نفسها وهمَّت بمسح دموعها بعباءة الخلافة الخضراء، التي ورثتها من ولدها الأمين وزوجها هارون الرشيد، واستجمعت رباطة جأشها واقتربت من المأمون وصفعته صفعة قوية، طبعت بها أصابعها على وجنته، وبصوتٍ هامسٍ متصدع، قالت:

- بل قتلته، وسأقتص منك يومًا!

كان فزعها في تلك اللحظة هو أن يأسرها المأمون، وتنجرح في صميم كبريائها بعد أن كانت ذا شأنٍ عظيم، فاكتفت بفجيعتها على ولدها واكتفت بقطرات الدموع المالحة، التي حُفرت في أعماق فؤادها واستسلمت للأمر الواقع!

بيد أنها تعلم بما لا يدع مجالًا للشك أن ولدها الأمين لم يكن قويًّا كأخيه، يُشافهها قلبها أن المأمون لم يأمر بقتل أخيه، هناك أمر خفيٌّ! هل تُصدق

تلك الشائعات التي قيلت عن الخيزران وابنها "موسى الهادي" وأنها سبب في كل ما حدث؟!

هل تُصدق حديث الحكيم، الذي أخبرها به، وتكهُّنه بما حدث وما سيحدث لكل من تحمِل عروقه تلك الدماء التي فسدت، وسيُفسد معها أجيالًا قادمة؟!

ولكن سرعان ما تخضع لكلام الله، بأن كل ما يصاب به المرء مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أنْ ترى أعينهم النور، وقبل معترك الحياة، والسلطة ماهي إلا تكليف موروث من الأجداد، وليست حربًا ضروسًا، لتقوّض أجيالًا من بعدها أجيال، أشفق المأمون على حالها وابنها، وتوعَّد لقاتله فهو لم يرد قتله وإنما ما حدث نتيجة طبيعية، فلكل معركة قتلى من الجانبين، فلابد من ثأر يطفئ لهيب تلك النيران التي اشتعلت في الصدور مع كل صريعٍ يُصرع غدرًا في تلك الحرب الشعواء.

لم يكن المأمون قاسي القلب مجحفًا، فهو يعلم أن تمام العدل في صدِّ الجور والظلم من جانب أخيه بكل سبيل، هدأت نفسه وتحمل تلك الصفعة، على رغم خيط الدماء الذي انساب على شفتيه فرأى الدماء تتساقط على الأرض، فتذكر دماء أخيه المتساقطة على مدخل المدينة، وبدأ يلاحق مَن قتله، ويكأن تلك الدماء نزفت من قلبه!

فكر المأمون أن يكتب كتابًا يوثِّق فيه أسباب تلك الحادثة، كي يطيب ذكرُه في المجالس دومًا كما طاب لوالده هارون الرشيد، فتذكر جدته الخيزران وكم كانت سيدة قوية وذكية، وكيف اهتمت بالكتب والثقافة والفكر!

وذاك الباع العريض الذي كان لها في الأدب والشعر، وكم كانت ذا لسان فصيح وعقل واعٍ، وكيف اقترن اسمها بهذه الحادثة الشهيرة، التي نُسبت

إليها؛ وهي قتل ابنِها وفلذة كبدها "موسى الهادي"، وهل يعقل أن تقتل أمٌّ ابنَها بهذه السهولة؟! وكيف لامرأة حكيمة وذكية تفعل ذلك؟! رأى المأمون الحزن الواجم في أعين زوجة أبيه زبيدة، وقارن في نفسه بين جدته الخيزران وبينها وكيف صرعا ابنيهما، ليقف وقفة شامخة ينسى بها ما حدث ويبدأ صفحةً بيضاء زاهية، يخط فيها بقلم الإيمان والصبر خطوطًا عريضة لمستقبل البلاد، التي باتت الآن تحت إمرته وخلافته.

البرج

ارتفاعٌ شاهق، تكاد السُحب الرمادية تدنو من الرءوس، في يومٍ ماطرٍ شديد البرودة، وقف هو وصديقه يشاهدان روعة المنظر من أعالي برج القاهرة، يتأملان فتاة صغيرة لا تتجاوز الخامسة من عمرها، يحملها أبوها في حنان ممسكًا تلك النظارة المكبرة في البرج، رافعًا إياها بحذر لتغمض عينيها اللوزيتين ببراءة، فتتأمل تلك المباني الصغيرة الكثيرة التي تعانق بعضها بعضًا، فتطلق شهقة عفوية تثيرُ بها انتباهَ الحضور، وتقول ببراءة: - "من أين لهم بكل هذه المكعبات الكثيرة حتى يشكلون كل هذا"؟! وما إن سمع الحضور تلك الكلمات، حتى انفرجتِ الأثغار بالقهقهات العالية، ابتسم الصديقان ابتسامة مكبوتة، ظفر أحدهما صاحب السترة الجلْدية السوداء، ليقول وهو يشير بسباته "ليتني مثلها"!..

- مثل من؟!

- تلك الفتاة الصغيرة، ليتني كنت فتًى صغيرًا لم ينل الكِبَر جسدي، ليتني أرى العالم مكعباتٍ ملونة أستطيع تشكيلها وتكوينها كما أشاء! ربما أصنع بها قلبًا جديدًا بدلًا من ذاك الذي تحطم، أو أشكلها قصرًا من الأحلام التي فُقدت في براثن التيه!

أو أرمِّمُ بها ذاك الدمار الذي لحِقني، ونالني بسهولة! ظلت تضيق أعين الصديق الآخر، وتتسع استهتارًا وسخريةً، وقال له واضعًا يده على كتفه مازحًا: ما هذا أتدرس الفلسفة من دوني؟!

حسنًا يا سقراط عصرك، اترك تلك المكعبات وتأملْ معي الفلسفة في أبهى صورها. أمسك بكتفيه دافعًا إياه ليستدير واقفًا، ترتكز عيناه قدرًا على فتاتين تحملان باقة غير منتظمة من بالونات الهيليوم الملونة، تلتقطان بعض الصور التذكارية، تبرق ملامحهما بهجة، تفوح عطر ابتسامتهما شذًى تنعش من حولهم كزهرتين يانعتين تتمايلانِ برقة، ولكن سرعان ما تهب رياح متوسطة الشدة، تتطاير معها ملابس الجميع، حتى إنها كانت

كافية لانتزاع تلك البالونات على حين غرة، لترتقي إلى السماء الواسعة، فتختفي وراء تلك السحب الكثيفة، التي تتسابق مسرعة بفعل الهواء الشديد، تناثرت معها خصلات شعره الأسود الكاحل، تأمل الصديق صاحب السترة الجلْدية السوداء الأسلاك الحاجزة واستشعر برودتها؛ فهي ميتة كموت كل جميلٍ في حياته، استرجع شريط الذكريات، تذكر لمسة أمه الحانية؛ التي كثيرًا ما بكت لأجله في الحزن والفرح، في النجاح والإخفاق، نعم لكل إنسان طبيعي إخفاق وزلة يزلُّ لها العقل وتقبع سجينة القلب.

وفي نظرةٍ لا تنبئ بحذر، اعتلى أسلاك البرج الحديدية، علقت سترته الجلْدية في إشارة منها ترجوه عدم الرحيل، إلا أنه نزعها بقوة، ليهبط سابحًا في الهواء إلى أسفل، في صدمة وذهول من الجميع، ظلَّ صديقه يضع الهاتف في ذهولٍ وارتباك، حيث قطع حديثه على الهاتف هرج ومرج وحركة غير طبيعية، لم يخطر بباله أن صديقه الذي تركه منذ دقائق

معدودة، هو باعث تلك الجلبة في البرج، ارتعدت أوصاله عندما رأى سترة صديقه السوداء معلقة على أسلاك البرج الحاجزة.

اغرورقت عيناه بالدموع وظل يصيح عليه بصوت متحشرج مبحوح لينظر إلى أسفل، ليجد صديقه الذي استغل فرصة حديثه في الهاتف المحمول جثة ممددة، وقف الهواء في حنجرته يأبى الخروج، ويكأنما شُجَّت حنجرته بسكين صدئ، عندما تذكر أنه من أقنعه بالخروج، ليسري عنه ويساعده على تغيير حالته المزاجية، عندما هاتفه وهو في حالة نفسية سيئة، بدأ يستوعب الأمر وبدأ يناديه مرارًا وتكرارًا وهو يصرخ، أصواتٌ متشابكة، بكاء، عويل، مشاعر مضطربة ومتلاحقة، منهم من يدعو له بالرحمة، ومنهم من يدعو عليه ومنهم من لم تحتمل روحه الموقف ففصلت كهرباء عقله وأُغشي عليه، لا تستطع عقولهم التسليم بما حدث، يسألون ويتساءلون، سيدة تحوقل وتسأل الصديق الذي تكوَّر في أحد الجوانب، يحتضن ركبتيه، لا يستطيع الحديث، سوى بجملٍ غير مفهومة، أحجية معقدة، فاجعة أفقدت العقول ثباتها.

كيف يفعل ذلك الشاب الصغير هذا؟ حتى إنه لم يسمح لأحدٍ بإنقاذه لاسيما سترته الجلْدية، التي أمسكت به تحدثه أن يراجع نفسه، لم يلتفت إليها! ترى ما الأمر الجلل الذي يدفع شابًا لأن يُنهي حياته بهذا الشكل؟! وهل يملك حياته ورزقه ومستقبله ليلجم عقارب الساعة إلى الأبد؟! يُخال إليه صديقه كم كان شارد الذهن واجمًا، لم تمنعه قِصرُ قامته من القفز سريعًا، يبدو ذا بنية رياضية رشيقة، لم يهدأ الصديق الآخر من النداء مرارًا وتكرارًا ولكن للأسف لا يجيب، سقط في الغياهب حيث الظلمة أرْحم من النور، وتراب الأرض أهنأ من منامة الشوك!

الفصل الثاني

عمر

السبت السابعة صباحًا على شاطئ مدينة بورسعيد، يتأمل تلك النوارس التي تهبط لالتقاط بعض الأسماك الفضية كأنها تحمل جواهر ماسية مضيئة وسحر غطغطة الأمواج، كتلك التي يسمعها دومًا عندما تهيم أذناه حال وضع تلك الصدفة البيضاء عليها، يسافر بوجدانه مغمض العينين هائمًا، على شاطئ تلك المدينة الساحلية البديعة، تجرُّ ثوبها الأبيض المتلألئُ كعروسٍ مزدانة في يوم زفافٍ نهاري، تلبي خطوط الشمس الذهبية دعوة الزفاف، ترسل قبلاتها الحارة إلى تلك المويجات البيضاء فتزيدها وضاءة وجذلًا، يكاد يجزم أن ذاك الهواء المنعش يستحيل أن يتكون من ذرتين فقط من الأكسجين بل المئات التي تحمل ذراته سعادة ونشوة استثنائية، تجعل

قلبه معلقًا بمدينته التي نشأ بها وتربى على سحرها الفتان؛ فلا يستطيع الخروج منها، كالسمك الذي يموت من فور خروجه من الماء.

يقف أعلى "المعدِّية" التي تعبر البحر على الجانب الآخر، لتنقله إلى قارة إفريقيا أو مدينة "بورسعيد" من "مدينة بورفؤاد" محل إقامته، وهي جزء من قارة أسيا على حسب قول معلمي الجغرافيا في مدرسته، "عمر" ذاك الشاب متوسط الوسامة الذي لم تكتمل نمو عضلاته بعد على النحو الذي يُرضيه، بسبب دراسته المنتظمة في "كلية الآثار" جامعة القاهرة.

فهو في السنة النهائية وعليه أن يجتهد ليحقق حلمه الذي كثيرًا ما سعى جاهدًا لتحقيقه وهو (منحة الكلية) التي تمنحها بعد العام الدراسي لطلابها الفائقين للبحث والدراسة، في أحد البلاد العربية التي تتضمن آثارًا إسلامية؛ فقد تخصص "عمر" بقسم الآثار الإسلامية لأسبابٍ خفية ولولعه الشديد بشخصيات الدراما، كفيلم عنترة بن شداد؛ كان يبهره الشخصيات واللغة والملابس المزخرفة، وقوتهم الخارقة وبأْسهم الشديد، وتحملهم كل هذه المصاعب، وعقولهم الفطنة وكيف حافظ المؤرخون على أن يصل إلينا التاريخ كما هو بحسنه وقبحه.

فلا يعقل أبدًا أن يكون عنترة بن شداد بطلًا شعبيًّا، شهمًا، كريمًا، مقدامًا كما أوضحته الدراما! قطعًا هو إنسان يحمل من الخير ما يحمل من الشر، تتفاوت كل شخصية وأخرى على حسب المكان والزمان والعصر، كان يشغل عقله تساؤلات عدة! هل المؤرخون نقلوا لنا الحقيقة كماهي؟..

وهل مصادرهم صادقة؟! وهل التاريخ يكتبه المنتصرون كما يزعم البعض؟!

قال له والده ذات يوم عندما عرض عليه هذه الأسئلة:

- يمكنك بالتاريخ أن تعرف المستقبل؟
أردف عمر تعلو ملامحه الدهشة:

ـ وكيف لي أن أعلم الغيب يا أبي؟!

ـ ببساطة شديدة، لأن التاريخ يتكرر، والأمم الواعية هي التي تعي أخطاء السابقين وتضع أسفلها خطًّا أحمر، حتى لا تقع في تلك الأخطاء مجدّدًا في المستقبل وهناك من الدُول من فهمت الدرس جيدًا وهي الآن في القمة، لم تضع التاريخ بأحداثه في كتاب ليتعلمه أبناؤها، بل تُريهم التاريخ رؤيا العين، في عدالتها كعدالة عمر بن الخطاب، ووعيها كوعي العلماء مثال ابن سينا والحسن بن الهيثم، ورحمتها كرحمة معلِّمِ البشرية سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام)، تمامًا كالطالب الماهر الذي يفتش عن اختبارات الأعوام السابقة، وإن اختلفت طريقتها، أو لغتها، فالأسئلة تتكرر بشكل أو بآخر وهناك من مرَّ منها بسلام وحاز أعلى الدرجات، أما الآخر فاحتمال تفوقه لا يكاد يُرى، حتى لو ألمَّ بالمنهج كاملًا.

أحب "عمر" قصص ألف ليلة وليلة، وقصص الأساطير والأبطال، وتلك القصة التي كانت تحكيها له أخته الكبرى "حبيبة" صاحبة الثلاثين ربيعًا، التي تزوجت بشاب هندي وسافرت معه إلى بلده الهند، وكلما اشتاق إليها، تدمع عيناه، وما يفتأُ إلا أن يفتح تلك المذكرة الزرقاء المزركشة باللون الأحمر التي أهدتها إليه، يتجول في غرفته التي صممها له والده على الطراز القديم، السقف المزخرف بأوراق شجر غير منتظمة، جبسية ملونة باللونين الفضي والذهبي، تعطي فخامة وجمال أخَّاذ، والمنزل بكامله ذات أسقفٍ بتصاميم عتيقة، على نفس النسق تتوسطها ثريات زهيدة الطراز، مما جعل السقف كلوحة فنية منسقة كأسقف القصور الإسلامية ولكن على هيئة مصغرة، نظر إلى سقف الغرفة وقرأ قصص "حبيبة" التي أهدته إياها قبل سفرها، وخاصة تلك القصة التي يستمتع بكلماتها وتضعه في نفس الزمان والمكان رغم لين عباراتها ومشاهدها، وهي على غرار قصة ألف ليلة وليلة التي يعشقها، كانت الحروف تتساقط حنينًا وشوقًا لمن كتبها، تحمل روحها المحبة، يبتسم "عمر" ابتسامة دامعة، إلى أن استقرت عيناه على تلك العبارات:

"بدمعةٍ صغيرة بكت في السريرة، عن حبها المسلوب وقلبها المغلوب؛ فهي فقيرة وهو أمير، وفي يوم من الأيام دعا الأمير الحشد الغفير، على مائدةٍ مملوءة بخبزٍ وماء، وأمر أن يقول بصوتٍ مسموع "الحضور للجميع فقراء وأغنياء". عَلِمَ الأغنياء بمائدة الأمير، فقال أحدهم "ما فائدة الحضور فتلك المائدة لا تسمن ولا تغني من جوع"، فغاب الجميع إلا الفقراء، فلا يملكون خبزًا ولا حتى ماءً، ولكن الحقيقة أن مائدة الأمير أشبه بالعقيقة؛ مملوءة باهتمام بلحوم النعام وما لذَّ وطاب، أما الأغنياء فلن تملأ أعينهم إلا التراب".

زفر "عمر" بتنهيدة مزقت أساريره، تشتاق عيناه لابتسامة "حبيبة" التي كانت تملأ المنزل زهوة وحبورًا، بروحها المرحة، وأكلاتها الشهية التي تطهيها لهم ليلًا وتفاجئهم بها في أيام الشتاء القارس، فهي لا تملك إلا العطاء دائمًا.

كما كانت قصة ألف ليلة وليلة، التي ابتاعها له والده في بداية المرحلة الإعدادية بمنزلة البذرة التي زرعها بالصدفة البحتة، ليحصدها "عمر" عشقًا للتاريخ وتحديدًا الكتب التاريخية القديمة، شديدة الدقة والتفاصيل، فكل مكان تاريخي يقرأ عنه، يسعى جاهدًا متشوقًا لزيارته ليدعوه فضوله لمعرفة المزيد عن شخصيات مؤثرة، حتى إنه عمل صيفًا كاملًا ليدخر ثمن تذكرة لإسبانيا ليزور مدينة الأندلس، بعد قراءته بعض القصص التي تتحدث عن تلك المأساة المعروفة بسقوط الأندلس.

يفتش عن أماكن عريقة، مبانٍ أثرية ذي طابع إسلامي أو شرقي، والمزيد عن حياة السابقين، أُغرِم عمر بتاريخ الفراعنة المصريين وحضارتهم وذكائهم، كما أغرِم بالتاريخ الإسلامي والقبطي، ليشبع ذاك الشغف والفضول للقراءة وخاصة التاريخية منها لزخمها الثقافي الجذاب، ولكنز المعلومات المتمثلة في الأدب والشعر وعلم الفلك والرياضيات والترجمة، كان يتأمل الزخارف الملونة في "الجامع الأزهر" ويتأمل الأعمدة الفخمة في قلعة "صلاح الدين الأيوبي"، يذهب إلى محرك البحث ليوثّق تلك

المعلومات في عقله والسؤال عن كل الدقائق، والصغائر البحثية التي دائمًا ما ترفع هرمون السعادة، فتجعله منتشيًا مستمتعًا، لاكتشافه مبحثًا مهمًّا بشكل مفصل وصل إلى يده أخيرًا فيحتفل بطريقته، مع أصدقائه اللائي لهم نفس اهتمامه.

كان "عمر" يعيش في ذاك العالم الذي رسمه لنفسه، منغمسًا فيه بشكل كامل قرأ في مرحلة الثانوي العام "تاريخ الطبري كاملًا"، حتى كادت أن تشفق عليه أمه دومًا، عندما تجده نائمًا على صفحات كتاب في ليالي الشتاء الباردة، معتمرًا قبعته الحمراء كطقسٍ من طقوس القراءة، يرتدي جوربين مهترئَيْن أحدهما أسود والآخر أزرق، محشوًّا بالملابس تمامًا كتلك الوسادة بجانبه، أمامه أكثر من ثلاثة كؤوس من القهوة والمشروبات الساخنة، تتأمل أمه الفوضى حوله تنزعج قليلًا ولكن سرعان ما تبتسم وتدعو له، تُمسِّد ظهره بحنان، فيستفيق من تلك اللمسة ويكأنها تمسح عن قلبه الهموم، تنظفه من الشوائب وتثبته في مكانه برفق ورقة، يظل ينادي شخصيات الرواية التي يقرأها، وكأنه صديق البطل وحامي أسراره، أو يحب البطلة بكل تفاصيلها ويتخيلها جانبه يسمع دقات قلبها تهتف باسمه، يتمنى لو كانت حقيقة ليست مجرد طيف لفتاة جميلة، على هيئة حروف وردية تلفحه بعطرها الأخَّاذ.

تمسك أمه إحدى أذنيه مازحة، وتقول له: "قل لي ما الذي يستهويك في القراءة إلى هذه الدرجة؟! بدأت أشعر بالغيرة من تلك الروايات والكتب". استلقى على ظهره متوسِّدًا أعلى ركبتيها، التمعت عيناه، وقال لها:

- يا أمي، إن كتابي يخفف عني، أغوص في أبحره، أتنفس كلماته، ربما أجد فيه ضالتي، أو يُحدث ضجيجًا كضجيج البرق والمطر، فيطغى على أوجاعي أتذوق حرفه، أتشدق وصفه، أسمو بنفسي فتتغذى روحي، أراني طيرًا أزرق يطير بين صفحاته، أغرد بألحان كلماته، وبعد أن تنتهي الصفحات، أهبط على واقعي الكهل كطفلٍ في المهد، وسرعان ما أذهب إلى مكتبتي لأسحب كتابًا آخر، أعيش حياةً أخرى، لعصفورٍ مهاجر، أو مهرٍ

ضائع، ويكون بيتي تارةً من اللؤلؤ، وتارة من الزبرْجد أو حتى من الجشمت، وتدور بي الدائرة وأرنو لمعتكفٍ آخر لرحلةٍ أخرى، لتدور وتدور إلى أن تنتهي الكتب أو ينتهي أجلي.

تتعجب الأم وتقارن في نفسها أخاه الأصغر "يامن" الذي دائمًا ما يتهرب من القراءة ويعتبرها تضييعًا للوقت والجهد؛ فهو كسول في البحث عن المعلومات، ولكن فطرتها بمحبته تفوز فوزًا ساحقًا على كل خطأ أو عيب به، فتتذكر روحه المرحة وابتسامته وعينيه اللتين تلتمعان حبًّا واحترامًا لها ولأبيه دومًا، لا يعترض ولا يناقش عندما يُوكَّل له شيء، دائمًا ما يخْفض لها ولأبيه جناحَ الذلِّ من الرحمة.

عندما أصر عليه أبوه للاطلاع والقراءة، ظفر قائلًا:

ـ ما وجه المتعة في استخدام حاسة واحدة فقط، وهي البصر، في حين أستطيع أن أستخدم أكثر من حاسة عند مشاهدة التلفاز، أو اللعب على الكمبيوتر أوالدردشة مع بعض الأصدقاء، لستُ مولعًا بالقراءة ولن أفعل!
هي قدرات فائقة تخص ابنك الأكبر "عمر"، كثيرًا ما كان العاقل وأنا المستهتر وهو الفائق القارئ، المثالي في كل شيء، الذي يشبهك في كل تصرفاتك في حين أنا أشبه أخوالي، فقط لأنك تتعارض بالكلية مع أسلوب حياتهم المترفة من سفرٍ وتنزه، وأنت لا تحب ذلك ولن تسمح لي!

كثيرًاما كنتُ المُخفق حتى لو نجحتُ، الضعيفَ حتى لو اجتهدتُ، هناك شخص مميز وهو أنا ههه!

شخص وحيد مميز على هذه الحياة لم تكن لديه مواهب تُذكر، لا يعشق رائحة الكتب ولا يبدو عليه أنه قارئ نهم، ولم يستطع أي شخص أن يقنعني بغير ذلك ربما لأسباب تتعلق بي، أو بالآخرين حولي، ربما لم يربِّت على كتفي معلم اللغة العربية كما فعل مع أخي!

لم أذكر يا أبي أن أهديتني كتابًا يومًا ما، أو أهديتني شيئًا ترفيهيًّا أحبُّه!

بل هناك ما أهديتني به، آلة حاسبة جديدة، عوضًا عن القديمة، على كلٍّ.. هأنذا أقرأ وأطحن الكتب طحنًا، ليس حبًّا في الكتب وإنما لإنجاز تلك الدراسة وفقط إرضاءً لك يا أبي، ما زلت في تلك الحرب الضروس مع نفسي أتأقلم مع مناهج الكلية التي لا تناسب أحلامي، كلية الحقوق هدف لأشخاص آخرين ولكن ليس أنا! كان شغفي دومًا حلَّ الألغاز والأحجيات والمسائل الرياضية، ولكن.....

قاطع حديثه لنفسه، قائلًا:

- ليتني أستطيع البوح عن كل هذا لك يا أبي!..

دون خوف أو قلق، دائمًا ما تتجاهلني، لا أفهم تلك النظرات الحزينة التي ترمقني بها دومًا، ومع ذلك أشعر بحبك الخفي الذي تخفيه لي نظراتك القلقة. كم أود أنْ أخبرك عن روحي المهلهلة ونفسي الممزقة، وعن ذاك السر الذي كثيرًا ما أخفيته عن الجميع! ربما لأني لا أحب أن أكون ضعيفًا أو يرى أحد فشلي وانكساري، يبدو أنني ممثل بارع، دومًا ما أبرع في تمثيل الفتى الطائع المحب للجميع، فكان أول من أطلق عليه سهام الكره، هي نفسُه التي بين جنبيه!

كم وددتُ أن أصرخَ وأبكيَ بأعلى صوتي، ليت لي موهبة أخي في الذكاء والهدوء الذي دائمًا ما تتغنى به، فأتجاذب معك أطراف الحديث ساعاتٍ طويلة! بل، ساعة واحدة أو بضع دقائق، تبتسم لي قسمات وجهك، تضيق عيناك ضاحكة من نكاتي السخيفة تمزح معي بضربةٍ خفيفة على رأسي، كم أغبطك يا أخي! كثيرًا ما تمنيت أن تختفي من الوجود ويكون لي النصيب الأكبر من حنان أبي واهتمامه، أو أختفي أنا، لن يحتمل العالم كلينا!

ليتك لم ترحلي يا أختي الحبيبة، كم يشبهك اسمك "حبيبة"! وأنت بالفعل حبيبة ويكأن أزهار نادرة من الحب تنبت بداخلك، تطلقين عبيرها اهتمامًا

وحبًّا لي وللجميع، كان وجودك بيننا كمسكن، يسكن القلوب التي أدمتها الوحدة، كضمادةٍ ناعمة تشفي جروحات القلب، كم أفتقد تهذيبك الحاني، وابتسامتك التي تجبر القمرعلى التوهج كبلورة مضيئة في ظلمة ليلٍ حالك السواد، وتجبر الشمس على الدفء رغم الصقيع والبرْد القارس، نقبت عن كنوزي التي كثيرًا ما تبرأْت منها، كرهت حياتي إلا وجودك فيها، وهأنتذا مع من اختاره قلبك فهنيئًا له، وهنيئًا لك السعادة!

همَّ "يامن" واقفًا على قدميه، ممسكًا تلك الصورة العائلية التي تجمعه بأخيه عمر وأخته حبيبة وأمه وأبيه، وقال قاطبًا جبينه: "إلى متى سأظل وحيدًا؟! حتى صديقي الوحيد، خانني"!

جلس "عمر" ينتظر قطار الساعة الثامنة، المتجه من بورسعيد إلى القاهرة، لأداء امتحانات السنة الرابعة، صباح اليوم التالي في كلية الآثار جامعة القاهرة ومعه صديقه "كريم"، ذاك الصديق المشاغب الذي لم يتخيل أن يصادقه يومًا ويتشاركان معا نفس السكن، ويدخلان معًا نفس الكلية ونفس القسم، كان عمر يرى كريم سطحيًّا، دائم المزاح والمرح، وفي يوم من الأيام، تحول كريم من ذاك المشاغب المرح إلى شخصٍ مبهم صامت حزين، فقَدَ رغبته في الكلام على غير العادة، يخرج في هدوء ويجيء في صمت يدخل غرفته ولم ينبس ببنت شفة، يجيب على قدر السؤال، حتى سخر منه أحد الأصدقاء في السكن يتحسس جبهته، ويزفر قائلًا:

- أمريضٌ أنت؟!

نظر إليه بملامح جامدة لم يستجب لسؤاله، سخريته المعهودة على كل شيء ونكاته المستمرة، تبدلت صمتًا غريبًا فلم يضايق عمر كالعادة، في بادئ الأمر كان عمر يستحسن تلك التصرفات، وتأقلم معه على حالته الجديدة، بيد أن عمر بدأ يشتاق لنكاته وضحكاته وروحه المرحة، فقرر أن يتقرَّب منه ويستشف ما أصابه، حاول مرارًا حتى رآه يومًا جالسًا على

مقعد في مطعم الكلية يتوسَّد زراعيه، يبدو عليه الإرهاق، جلس عمر أمامه متسائلًا:

- هل لي أسألك أمرًا؟

اعتدل "كريم" اهتمامًا، وأردف:

- نعم، بالطبع يمكنك.

- كيف لإنسان طبيعي أن يضع في كوب الشاي الواحد خمس ملاعق من السكر؟!

- بدا على وجه" كريم" ابتسامة رقيقة، أزاحت بها غبار الحزن عن وجهه، وقال لعمر: "وكيف لإنسان طبيعي أن يشربه دون سكر"؟!

دخل الاثنان في نوبة من الضحك المتواصل، ويكأنما أرواحهم عطشة للمرح، لانت قلوبهم الممتلئة أثقالًا من الهموم مع أول موقف يستدعي المرح، لم يتطفلْ عمر ويسأل كريم عن سبب حزنه ولكن أرضاه أن روحه المرحة عادت، ولذا لم يلبث كريم إلا أن زاد احترامه لعمر، ومنذ ذاك الحين أصبحا صديقين.

جلس عمر وكريم في القطار، يتسامران ويتجاذبان أطراف الحديث، كل منه يحكي ما حدث له في الأسبوعين السابقين، "كريم" يعمل في مدة الإجازة بمحل عطور أسفل الممشى السياحي بمحافظة بورسعيد، أما عمر فيعمل نادلًا في أحد مطاعم الأكلات السريعة على شارع "طرح البحر"، ولأن صاحب المطعم صديق مقرب لوالد عمر، فهو غير مقيَّد بالعمل معه طيلة العام، خاصة أن عمر شاب يشار إليه بالبنان، والتربية والأخلاق العالية، دائمًا ما يحمل بحوزته كتابًا يقرأه.

كان عمر شابًّا قصيرًا متوسط الوسامة، ذا ملامح حادة وعينين سوداوين وشعر أجعد كثيف وحاجبين كثيفين، وأنف دقيق مدبب، ووجه دائري خمري يميل إلى الحمرة، رشيق ورياضي يمارس كرة القدم من حين لآخر مع زملائه، جلسا يتأملان المحطات المنصرمة من شباك القطار كسنوات الجامعة التي مرت بحلوها ومرها، أردف كريم، قائلًا:

ـ قل لي يا بطل ما الجديد في حياتك، هل عثرَتْ عليك أخيرًا؟

- عمن تتحدث، من التي عثرتْ عليَّ؟!

ـ شهر زاد، ست الحسن والجمال..

سيدة الحسب والنسب، ألن تتزوج يا رجل؟!

ـ لم أعثر عليها بعد، ثم هل هناك ما يضاهي شهر زاد في جمالها وقصصها في هذا العالم الممتلئ بالزيف والمساحيق، والملابس الدسمة والبناطيل الممزقة، حتى الحجاب اندثر فلابد من تلك الشعرات الملونات التي تتدلى كالحرير من أسفل الحجاب، والخط الفرعوني العريض أعلى الجفن، حتى أضحت جميع الفتيات إلا من رحم، يضعونه كعلامة الجودة للمنتج، حتى تسابقت يومًا أنا وصديقي أحمد لنحصي الفتيات التي لم تضعه، فلم نجد!

ضحك الصديقان ضحكاتٍ عالية أيقظت رجلًا في العقد الرابع، على المقعد المقابل فنظر إليهما نظرة تهكم واستغراب، وقال لهما:

ـ معذرة، سمعت حديثكم دون قصد كنت مغمض العينين لم أكن نائمًا، هلا تقبلون النصيحة من رجل مثل أخيكم الأكبر؟

فقد مررت بالكثير من مواقف الحياة، تعلمت الدرس جيدًا وعزمت ألا أكرر ذلك أبدًا.

ضم كريم شفتيه مبتسمًا، وقال:

ـ بالفعل تفضل، لا مانع من الاستفادة من تجارب الآخرين!

ـ كنت أتكلم مع فتاة في الهاتف ليلًا تعرفت إليها في الجامعة، وكنت أكِنُّ لها بعض المشاعر أتأملُ صوتَها العذب، انتفضت فجأة عندما سمعت حركة غريبة خارج غرفتي، وإذ بها أختي الصغيرة تتهامس وتضحك، لأصعق بها عندما أدركت أنها تكلم شابًّا هي الأخرى في الهاتف، كانت ردة فعلي حينها صادمة للجميع، غضبت بشدة وتحركت الدماء في عروقي، وصرخت بها بأعلى صوتي، أيقظت كل من في المنزل حينها، حتى إنني نسيت إغلاق هاتفي، فسمعت الفتاة التي كنت أغدق عليها بكلمات الحب والعشق منذ دقائق، الحوار الذي دار بيني وبين أختي كاملًا، وماحدث بعد ذلك هو أنني خسرت الاثنتين جملة واحدة!

أختي الآن متزوجة ودائمًا ما تذكرني بهذا الموقف وسرعان ما أشعر بالخزي، أدركت حينها جملة (كما تدين تدان)؛ لذا أيقنت برهان تلك القاعدة "كلما تتحدث عن الفتيات، سيتحدث عن أختك آخرون وفي نفس اللحظة"!

وحينها سينكسر جسر من المحبة وجسر من الثقة ولن يعود!

وكأن هذا الشاب الأربعيني يحكي قصة مشوقة، تأثر عمر جدًّا بكلماته، تذكر أخته الوحيدة حبيبة وأنها مع زوجها في الهند، ولا يملك الحديث معها إلا عن طريق شبكة الإنترنت، وما فتئ كريم حتى شهق هامسًا في أذن عمر، وقال له: "أبصر، تلك الفتاة زميلة لنا في الدفعة"!

ـ قال له عمر غاضبًا مزمجرًا:

ألم تتعظ من كلمات الرجل؟! استقم يارجل يرحمك الله، لا والله لنْ أنظر وسوف أغضُّ بصري، من أجل أختي حبيبة، استودعتها إياه بأن يحفظها فهي في بلادٍ غريبة، مع زوجها.. حاربت من أجل أن يوافق الجميع على زواجها، وضع عمر وجه يده على عينيه وأقسم أن لا يرى تلك الفتاة التي

تنافسه في الكلية، فهي الثانية على الدفعة في العام السابق، وعمر الأول على الدفعة مع مرتبة الشرف. قال كريم بحنق:

- ستراها يوما رغمًا عنك؛ فهي فتاة تفرض أخلاقها وجمالها على الجميع..

فلا تتحدث مع شباب الدفعة عكس معظم الفتيات، ولا أعلم هل ذلك بسبب خجلها. فعلى حسب علمي فالحياء انقرض مثل الديناصورات، أو ربما أخوها معنا في الكلية!!

قهقه عمر قهقهات عالية، وقال له: "سيأتي يوم وستعثر عليك من تجعلك تتوب عن الفتيات كليًّا"!

- حسنًا يا صديقي لن أنتظر أن تعثر عليَّ مثلك؛ سأفتش عنها بنفسي وسأجدها.

صباح اليوم التالي استيقظ الصديقان متأخران على موعد الاختبار وكانت أصعب مادة في الكلية، هُرع عمر وكريم مسرعين .. تأخَّرا خمس عشرة دقيقة كاملة على الامتحان، رفض رئيس لجنة الامتحانات أن يدخلهما الامتحان بكل حزم، ظلا يتوسلانه، أنهما تأخَّرا في المواصلات بسبب الزحام الشديد، وأن السكن اللذان استأجراه يبعد ثلاثين دقيقة!

فجأة أصغى عمر إلى صوت رنان، متلعثم، تقول بصوتٍ خجلٍ خفيض:

ـ معذرة أيها المراقب، هلا سمحت لي بالحديث؟

ـ تفضلي!

- "معذرة يا دكتور، هذا "عمر جمال" الأول على الدفعة الأعوام السابقة، رجاءً اتركهما؛ فهما أيضًا مغتربان من محافظة بعيدة". تفاجأ عمر بفتاة تجلس إلى جانب نوافذ المدرج ويخفي ضوء الشمس المنعكس على المرايا المقابلة وجهها، لم يرَ سوى تلك اليدين التي تمسك القلم في انحناءة منها،

تنكبُّ على ورقة الإجابة باهتمام وبجانبها زجاجة مياه قرمزية بغطاءٍ أصفر.

وافق كلام الفتاة بعض الطلاب في اللجنة الذين يعرفون عمر وكريم معرفة شخصية، وبدأ الجميع يتوسط لهما إشفاقًا لذاك الموقف الاضطراري، وما كان من مراقب اللجنة إلا أن يوافق مرغمًا فلنْ يكون أقل رحمة ممن يتوسطون لهم من باقي الطلاب، وقال بنبرة تحذيرية:

- سأسمح لكما بالمرور شريطة ألا يتكرر هذا الأمر مجددًا، وتذكَّرا كلماتي؛ "الرجل الذي لا يلتزم بمواعيده سيفشل في حياته حتى لو كان الأول على الدفعة"!

ابتسم عمر وكريم للدكتور ممتنَّيْن شاكرَيْن، وعداه أن هذا التأخير لن يتكرر. جلس عمر على مقعده، ليستغل ما تبقى من وقت حتى يجيب عن الأسئلة ويسلِّم الورقة في الوقت المحدد، وفي نفس الوقت راوده شعور غريب تجاه تلك الفتاة التي لا يعرفها ولم يرها، والغريب أنها تعرفه حق المعرفة وتعرف اسمه ولقبه، وتعرف أنه مغترب.

كان عمر يجلس في الامتحان، لا ينفك أن يسيطر على تفكيره حاول أن يقذف بذاك الموقف من مخيلته كتلك الوريقات التي جعَّدها وألقاها بعيدًا، كلما انصب فوق ورقة الأسئلة ليجيب عن الامتحان، تتخاطر على رأسه تلك الفتاة بكلماتها الخجلة المتلعثمة، يقول في نفسه:

- ما الذي جعلها تستجمع رباطة جأشها وتدافع عني؟! وأول مرة منذ ولوجه الكلية يتمنى أن ينتهي الاختبار سريعًا، ليحادث تلك الفتاة المجهولة ويشكرها على مافعلته لأجله.

انتهى الاختبار الذي ترك فيه عمر (سؤالًا كاملًا) بسبب ضيق الوقت الذي لم يسعفه، بفعل تأخره على اللجنة لأول مرة منذ أن دخل الكلية منذ أربع سنوات، استاء عمر عندما نظر إلى الجهة اليسرى، حيث نوافذ المدرج

التي تجلس إلى جانبها تلك الفتاة الغامضة التي أخذت جزءًا من تفكيره في الامتحان، ليتفاجأ بضربة قوية على كتفه، وإذا بصديقه كريم، الذي تهللت أساريره وهو يهمس خشية أن يسمعه أحد من الزملاء:

ـ قلت لك أمس ونحن في القطار ستراها رغمًا عنك وقد كان!

لأثبت لك أني أحمل قلبًا يشعر بالأشياء قبل أن تحدث، غالبا أرباب الحاسة السادسة أمثالي يملكون تلك المواهب، أردف عمر مُسبل العينين، بصوتٍ رخيم:

ـ ما أجمله من صوتٍ عزب يبعث فـ... قطع عمر حديثه ضاربًا جبهته بكفه، وهو يقول: "هذه الفتاة التي أقسمت أمس إني لن أنظر إليها، يا لحظي العاثر، ويا لغبائي"!

وكيف لي لم أعرفها وهي الثانية على الدفعة؟!

ـ ببساطة لأننا لم نذهب طيلة السنوات الثلاث السابقة لنعرف النتائج، لأننا مغتربان فنعلم النتيجة من أصدقائنا المقيمين في القاهرة.

ـ نعم أيها الذكي أعلم ... سأصوم ثلاثة أيام وغدًا قطعًا سأراها، ليس لشيء تعودت أن أشكر كل من قدم لي صنيعًا، أو معروفًا. نظر إليه كريم ضامًّا شفتيه مهمهمًا باسمًا، يقول بحماس:

- نعم سآتي معك وأنت تشكرها، ومن هنا لغد سأتقصى عنها وأعرف أصدقاءها وأين توجد.

ـ حسنًا أيها المحقق كونان؛ هيا بنا الآن ... حتى نمهّد ونذاكر للمادة التالية؛ فبعدما حدث اليوم أفكر جديًّا أن أنتظر هنا إلى يوم الامتحان القادم، فيكفي ما حدث اليوم.

صباح اليوم التالي داهمت الشمس المدينة الواسعة بلهيبها الحارق، وضوئها المارق، تحذر الجمع الغفير، ممنوع الاقتراب أو التصوير، تشير للسحب البيضاء أن يحملها الهواء، فهي تُشفق على العامل الفقير، والطفل الصغير، والشيخ الكبير، في المدينة الواسعة يسعى الرجال والنساء كلٌّ في طريقه، وتسعى الأرزاق تفتش جاهدة عمن سعى إليها.

يذهب عمر وكريم للاختبار ولكن هذه المرة، في نفس الموعد تمامًا، نظر عمر إلى المكان التي تجلس عليه الفتاة ولكن للأسف هناك الكثيرات بجانب النوافذ، أهْرف فضوله أكثر وظل يطقطق أصابعه توترًا، أكمل الامتحان وظل ينتظر صديقه كريم الذي يعرفها جيدًا، رن هاتفه النقال ليجد أباه على الهاتف، سرعان ما تبدلت ملامح وجهه ونسي كل شيء حوله، يسترق السمع لأبيه بتركيزٍ واهتمام، عندما ظفر والده، قائلًا:

- كيف حالك يا بُني، هل َّمر اختبار اليوم بسلام؟ رد عمر بكلماتٍ مقتضبة -فمشاعره حيال أبيه الآن باتت غريبة-، متوجسًا، قلقًا، خائفًا، بدا جليًّا لوالده ذاك القلق على نبرات صوته، فما أخبره به عند آخر لقاء يرفضه العقل وإن أقرته الحوادث! انتبه عمر لأبيه على الهاتف، قائلًا:

- حمدًا لله يا أبي، أنجزت الاختبار وفي انتظار صديقي. رد الأب بدوره: حسنًا:

- لن أوصيك يا بُني على نفسك، أرجو من الله أن تنعم بحياتك أنت وإخوتك ولم يصبكم مكروه إن شاء الله!

يغلق الهاتف مع أبيه بعد أن يتعهد له ولأمه أنه سيكون بخير، ويتذكر ذاك اللقاء وهذه القصة العجيبة التي أفشاها له والده، ويكأنه كابوس شرس يحبس أنفاسه يتمنى أن يستفيق منه ولكن بلا جدوى!!

تمر الأيام تحمل بين طياتها الكثير من المفاجآت والمواقف التي جعلت "عمر" مسؤولًا، أصبح تائهًا في عالمه أكثر، يفكر ولا يشارك أحدًا ما في

نفسه، تعلم أن يثق فقط في الكتب وما فيها من معلومات، بدأ يبحث ويضع احتمالات ويبحث عن حلول، إلى أن استقر أن يصلح الخطأ بنفسه، حتى لو تفتت الأمل وضاع بين طيات الزمان، علمته دراسته للآثار أن هناك أثرًا صغيرًا في مكان ما، عليه أن يتتبعه وحتمًا سيصل مع الإصرار والإيمان.

حبيبة

مازلت أشتاق ومازال الحنين يكويني بنار الجفاءْ..

مازلت أبكي في ظلمات الليل، أترقب فرحة اللقاء..

مازلت هناك في مجرتي البعيدة أنتظر عز الوفاء..

مازلت أسمع ذاك الهسيس المُضن من أفواه البلغاء..

مازلت لا أقوى على التفسير ومازال قولي غثاء!

تقف حبيبة على مشارف بحيرة "بهْوجتال" غرب مدينة "بوبال" في الهند، تبكي ولكن سرعان ما يثنيها عن حزنها تلك الشجيرات الهرمات

التي تزورها الرياح الصديقة؛ فتزيد معها نشوتها كشجيرات بكرٍ رشيقة، مفعمة بالكرم والسخاء، تهب الظل وتحتضن قلب المدينة، كأجمل بقاع الأرض اخضرارًا، يتسارع الهواء الرطْب داخل الأنوف؛ التي تعلن انتعاشها وانتشاءها بفعل أشجار القرفة، والياسمين الهندي، وشجرة العاشوقة المتمردة والمتفردة بقاماتها الرفيعة ورائحتها الذكية، وأزهارها اللماعة تربّت الطبيعة على كتفها ويمسِّد الهواء المحمَّل بعبير الأشجار حجابها الوردي، وتنورتها الفضفاضة المزركش أسلفها بخيطٍ ذهبي متعرج، يزداد تموجًا وجمالًا عند حركتها كأنها فراشة ملونة بلونٍ واحد وهذا ما جعلها أجمل وأرق، تتنقل بين الربيع والخريف في آن واحد، تتحرق شوقًا إلى وطنها وعالمها وعائلتها الصغيرة، التي تبعد عنهم بجسدها كل هذه الكيلو مترات ولكن قلبها مازال هناك، بجانب ابتسامة والدها وحنانه وعلى سَجادة صلاة والدتها يَخفِق بدعواتها، تفصلها عنهم البحيرات والأنهار ولكن حبال القرب متصلة بالقلب، يعتمل قلبها تلك الغصة التي ترافقها دومًا كأنها في مجرةٍ بعيدة عن كوكب الأرض، فمهما بلغ هذا المكان جمالًا وفيضًا، فلن يغنيها عن وطنها الرابض في أعماق روحها، الذي يكمن فيه ذاك الوطن الآخر على نحوٍ مصغر؛ وهو بيتها وأسرتها وأبواها، وإخوتها دائمو الشجار وجلساتهم أيام الأعياد حيث مظاهر الفرح لكل منهم. تتذكر أخاها "عمر" بوجهه العابس دومًا وابتسامته النادرة؛ الذي لا يبالي لأحد، يعيش في قوقعته تمامًا كذاك "الحلزون"، الذي جلباه من الحديقة المجاورة في طفولتهما، وتلك الأعين

المغرورقة بالدموع عندما استيقظا ووجدا "الحلزون" وقد فارق الحياة، حينها أدركت أن وراء ذلك الجمود قلبًا رقيقًا محبًّا.

وسرعان ما يتملك وجهها ابتسامة عندما تذكُر أخاها الأصغر "يامن" ذا الابتسامة الملائكية، والعينين البنيتين بلون شعره الناعم، وحساسيته المفرطة، فسرعان ما يسيطر عليه الغضب، إذا مسَّ أحد كرامته، أو تطاول على كبريائه، وتذكرت معه ذاك اليوم الذي ظل يبكي فيه طيلة اليوم، عندما صوره عمر خلسة وهو يرقص على أغنية شعبية، الذي سريعًا ما باغتهم بعرضها على شاشة التلفاز الموصل بهاتفه المحمول..

فيراها الجميع في أثناء الإفطار يوم الجمعة، تتعالى معها ضحكات الجميع، وأبوهم الذي تحشرجتْ أنفاسه من كثرة الضحك ولكن هو لم يتقبل الأمر قط واعتمدها إهانة لشخصه وكبريائه، تذكرت حبيبة عندما أمسكت بيديه هو وأخيه عمر ليتصالحا، حينها أصر "يامن" على رفض الصلح فتتركه ليهدأ ويمر اليوم بسلام، فعلى رغم غضبه الشديد إلا أنه يملك قلبًا صافيًا ينسى سريعًا!

يعود لطبيعته كأنَّ شيئًا لم يكن، حينها أيقنت أنها لابد أن تراعي مشاعره في المرات المقبلة مشددة على أخيها عمر هو الآخر، تتساءل هل مازال يفعل ذلك؟

تتنهد وتزرف الدموع ليقاطع خلوتها زوجها "سيف" الذي وضع يده على كتفيها محتضنًا إياها في حنان، يجاهد أن يعوضها حنان العائلة الغائبة الحاضرة، يدلِّلُها كفتاته الصغيرة، يغرقها بكلمات العشق والحب، يحترم رغباتها، يشجعها على دراستها في الهند كمبرمجة كمبيوتر وهو معلمها، تغمض عينيها كقطة صغيرة وتغوص في أحضان زوجها "سيف"، حب عمرها التي استخارت ربها عليه يومًا ليكون زوجها وسيدًا على عرش قلبها، رأت فيه كل ما وصى به الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديثه، رضيت فيه دينه وخلقه وعلمه، اعترض عائلتاهما اعتراضًا شديدًا في

بادئ الأمر، أما صديقتها المقربة، فقالت لها جملة أيقنت بها مدى سطحيتها وكانت سببًا على إصرارها على موقفها، عندما قالت لها:

- هل تظنين أنك ستتزوجين "شاروخان" في إشارةٍ منها لذاك الممثل المشهور في الهند، قاصدةً السخرية والاستهتار بشخص" سيف"، ومواقفه النبيلة وعلمه الغزير عندما كان يدرّس لها البرمجة والكمبيوتر بشكل محترف.

كان سيف منتدبًا لكلية الحاسبات والمعلومات في مصر من الهند؛ لتدريس علوم الكمبيوتر، تعلمُ الجامعة جيدًا مدى براعة الهنود في علوم الكمبيوتر والبرمجة، وخاصة "سيف"، الذي تهيب له كل الأ ماكن احترامًا وتقديرًا على حدٍّ سواء، أعجبت حبيبة بشخصيته في صمت، لمْ تفشِ أسرار قلبها لأحد، علا في عينيها أكثر عندما فطنت غيرتَه على الفتيات ومعاملتَه لهن والحفاظ عليهن، كأنهن أخواته، يُثني عليه الجميع يشهدون بأخلاقه التي يقرُّها القاصي والداني، غاضين الطرف عن موطنه الذي ينتمي، وعائلته ولقبه في الهند، لمْ يُبدِ إعجابًا ظاهرًا لحبيبة، ولم تكن تعلم أنه يريد الزواج بها إلا من أبيها، هاتفه وتقابلا مراتٍ عدة، لم ييأس من كلمات أبيها التي دائمًا ما يظفر بها بودٍّ واحترام، لم يكن ملاكًا ولا شيطانًا ولكن أخلاقه تكلمت عنه، وجعلت أباها يتلطف معه في الحديث، قائلًا بنبرة هادئة:

- "يابني طرق العيش بينكما مختلفة". دومًا ما يصر سيف ويقول له كلماته العربية المبعثرة "سأحافظ عليها، سأتقي رب العباد فيها، ستكون سعيدة". يصمت الوالد هنيهة ويتعجب من إصراره، ويقول في نفسه:

- رفضت خطبتها من ابن صديقي لأنه يعيش في محافظة أخرى، ولم تكن دولة أخرى، بلغة أخرى وعادات وتقاليد مختلفة، حاول سيف مرارًا وتكرارًا، أن يثنيه عن رأيه، محافظًا على تلك المسافة بينهما.

تُطوى الأيام يومًا بعد يوم، فيزداد معها الحب من الطرفين، ويزداد الاشتياق، تتهرب "حبيبة" منه في الجامعة، حتى تتلافى نظراته التي باتت واضحة للجميع، لم يفقد معها أخلاقه واحترامه وحبيبة التي سرعان ما تحول إعجابها لمشاعر تفرض نفسها، وتسيطر على قسمات وجهها الذي يشعُّ نورًا عندما تراه، بدت تختلس النظرات الخجلة من بعيد، ليزيد قلبها إصرارًا على ذاك الأجنبي الغريب بنظرعائلتها وصديقاتها، القريب لقلبها، فباتت لا تريد سواه رفيقًا تكمل معه باقي حياتها.

ظلت "حبيبة" تخفي نفسها عنه لتنساه أو ينساها ولكن حدث العكس تمامًا، مع إصرار والدها على رفضه، باتت كل طرق الوصول إليه خربة ومتهالكة، بيد أنه مهَّد كل الطرق المعوجة بإصراره على الفوز بها، وبذرة المشاعر التي غُرست منذ أول لقاء نمت وتشعبت جذورها، فأصبح اقتلاعُها وجعًا تتمزق به أرض الحب، فتصبح أرضًا بورًا غير صالحة للزراعة، لم تنجح حبيبة بالابتعاد، فكلما ابتعدت اقتربت رغمًا عنها، أما هو فلن تهدأ روحه إلا إذا طمأنها، وذلك لن يحدث إلا برؤية حبيبة!

ظلَّ كالمجْذوب يبحث عنها في كل إنش وكل بقعة في الجامعة، إلى أن لمح عينيها تطل خلف ذاك الكتاب، منهمكة في القراءة، يتأملها بصمت وهي قابعة على مقعدها، كطفلة بريئة بعينين بندقيتين، كقطعتي عقيقٍ في فنجان قهوة شاهق البياض، لم تسعفه كلماته العربية غير المتقنة، ناداها بقلبه لتستشعر وجوده أمامها يلفحها بأنفاسه، يشرئب عنقها ببطء لتتصادم بعينيه وشعره الأسود الناعم يغطي جبهته وجزءًا من عويناته، وتلك الحفرتين اللتين تتوسطان وجنتيه عندما يبتسم، لتسري في أوصالها قشعريرة، تجعلها سريعًا ما تخفض رأسها إلى أسفل خجلًا، لتصبح أكثر تلعثمًا منه، تنسى حروفها وكلماتها، تسيطر لغة العيون وتحتل الموقف!

همس إليها بكلماتٍ مفككة وحروفٍ ملتوية لكنها تفهمها، فأوشت لها عيناه مسبقًا بتلك الكلمات التي أردف بها، قائلًا:

ـ آسف أني أخجلتك، ولكن كان عليَّ إخبارك، أني لنْ أتزوج غيرك، وإن غبتِ عن أنظاري فأنتِ حاضرة في قلبي وكياني، وأكاد أجزم أنك تبادليني نفس المشاعر، لن أيأس في إقناع عائلتينا.

تضحك "حبيبة" وتقول لسيف زوجها في حنان: وهأنذا وقعت في شباكك التي لا أستطيع الانفلات منها. ابتسم بدوره، قائلًا:

ـ الشكر لله الذي استجاب لدعواتي، وجعل أباك يوافق في اللحظة الأخيرة، ليرزقني الله جوهرةً ثمينةً تتوسط ذاك التاج على رأسي، فشجرة الحب تنبت في المكان الذي تختار، فمياه الري في كل الأماكن واحدة، وإنما الفرق يكمن في الأرواح التي ترويها.

يـامنْ

أطل يامن من شباك المشفى الذي يتوسط مدينته، قابضًا بيديه على جنبه الأيمن، موضع الألم الذي تخطى ضلوعه، يكاد يفقد توازنه، لا تحمله قدماه، يتأوه من ذاك الألم الذي باغته وهو في أوج نشاطه، عندما كان يمارس لعب كرة القدم، ينادي بالكاد بصوتٍ مكتوم:

_ هلْ من طبيب هنا؟!

ماذا لو لمْ تكن المشفى في وسط المدينة ليست مشفًى مهجورة! لكيلا يسعفني أحد!

سريعًا ما تسمعه الممرضة، فتقول له بصوت جاد وحازم:

ـ من فضلك الزم مقعدك وكن هادئًا، الدكتور معه حالة، لمح يامن صديقه يقترب ومعه دكتور آخر، يتضح له جليًّا أنه يعرفه جيدًا، علم بعد ذلك، أن هذا الطبيب ابن عم صديقه، صادف أنه يعمل بنفس المشفى وقارب على عقده الخامس، دلفا إلى غرفة الكشف مع الطبيب، الذي بدأ بالكشف على "يامن"، الذي صرخ بشدة عندما وضع يده على جانبه الأيمن موضع الألم الذي قرر من فوره إنْهاء الكشف، احتجاز يامن في المستشفى حيث إنه يعاني التهاب على الزائدة الدودية، ولابد له من جراحة في أقرب وقت حتى لا يتفاقم الوضع، وتنفجر في جسده، طلب الطبيب من الممرضات البدء في تحضيرات العملية، من أشعة وتحاليل طبية تستغرق أسبوعًا على الأكثر. تفاجأ "يامن"، وقال للطبيب: أي تحاليل التي تستغرق أسبوعًا كاملًا؟!

- ألمْ تقل إن الأمر خطير ولا يحْتمل الانتظار؟! قال له: لا تقلق، الأمر مستقر!

ولكن عليَّ التأكد أولًا من بعض الأجهزة الحيوية في جسدك، من خلال بعض التحاليل المهمة قبل العملية، وسأتحدث مع طبيب التحاليل بنفسي لإنجاز الأمر سريعًا، تحدث يامن إلى والدته بهدوء، يخاف عليها أكثر من نفسه خاصةً وهي تعاني من أمراض السكر والضغط!

مرت ثلاث ليال، ينتظر في قلق نتيجة التحاليل، ويكأنه ينتظر نتيجة اختبار مهم، يشعر أن هناك أمرًا لم ينبئ بخير، يخالجه أن الطبيب يخفي عليه أمرًا ما، زاد به قلقه وتوتره!

بطرقاتٍ غير منتظمة طرق الطبيب باب غرفة "يامن"، فأردف متوجسًا:

ـ تفضل يا دكتور، هل الأمور بخير، هل حان موعد العملية؟

- نعم، خير إن شاء الله، ولكنّ هناك أمرًا أودُّ أن أخبرك به!..

ـ سيتحتم عليك استئصال "الكُلية اليمنى"!

سيتم إرسالها إلى المعمل في القاهرة لفحصها، للكشف عن سبب احتقانها والتهابها بهذا السوء، أعتذر جدًّا يا يامن لاسبيل لك إلا باستئصالها، أعلم أن القرار صعب، ولكن أنت تعلم يمكن للإنسان أن يعيش بكُلية واحدة، وتقوم بعمل الاثنتين معًا.

تلقى يامن الصدمة في ذهول كأنما صبَّ فوق رأسه دلوًا كبيرًا ممتلئًا بالثلوج، صمت طويلًا، يناديه الطبيب فتمردت الكلمات أن تخرج رغمًا عنه، يفكر كيف يخبر أمه، وكيف يخبر الجميع، ماذا لو علمت قرار العملية؟! ربما يرتفع ضغطها، ويتوقف قلبها هلعًا ورعبًا، يتذكر جيدًا عندما أصابته إغماءة بغتة، في أثناء وجودهم في المصيف بالإسكندرية وهو في العاشرة من عمره، يتذكر جيدًا وجهها وبكاءها، وتوسلها للطبيب بيد أنه الآن في العشرين من عمره، سيطر القلق واستقر في نفسه حتى إنه نسي العملية برمتها!

قرر "يامن" أن يقوم بإجراء العملية دون أن يخبر أحدًا من أفراد أسرته، نادته الممرضة وهو شارد الذهن يرتدي قميص فريقه المفضل، يتأمله ويفكر ولكن ما في قلبه عكس ذلك تمامًا، لتقول له الممرضة بحنوٍّ وعطف:

- ألم يوجد معك أحد من عائلتك؟ هز رأسه يمنةً ويسرة في إشارةٍ منه، تعني "لا"، انزعجت الممرضة، قائلة: ولكن هي عملية كبيرة وستأخذ وقتًا وربما تحتاج إلى نقل بعض الدماء!

قاطعها سريعًا: وربما أموت!

أنا لا أخاف الموت! الموت هو رؤية وجه أمي في هذه اللحظة، حينها لن أسامح نفسي إذا سببت لها أي أذًى؛ فهي أغلى إنسان في حياتي.

فعلى رغم كل الحالات التي مرت على تلك الممرضة في المستشفى، إلا أنها لم تستطع أن تحبس دموعها التي سريعًا ما أخفتها وهي تحضِّره لإجراء العملية. أردفت بصوت شجيٍّ:

- ستكون بخير، لا تقلق، الدكتور من أمهر الجراحين، هذه العملية مضمون نجاحها إن شاء الله.

ابتسم "يامن" ابتسامة رضا، وقال لها: "إذًا لي رجاء عندك، عندما تأتي أمي بعد العملية لا تخبريها؛ فهي مريضة جدًّا ولن تتحمل".

قالت الممرضة وهي تشفق عليه: شفاها الله وبارك لك فيها... لن أقول لها، أعدك، وإن شاء الله نتائج التحاليل الأخرى تكون جيدة وتطمئن نفسك.

هاتف يامن والدته، وقال لها: غدًا موعد عملية الزائدة الدودية، لا تجهدي نفسك بالمجيء إلى المشفى يا أمي؛ معي أصدقائي حمزة ومعاذ.

امتزج صوت دعوات أمه ببكاءٍ قلق، وقالت له: "سأكون أنا وأبوك أمامك في خلال لحظات". علم والد يامن بأمر العملية الجراحية، فانفرطت روحه خوفًا كما ينفرط خرز سبحته، ظل يلملمها، يتأمل صورة يامن وهو طفل صغير، كم كان بريئًا ولم تفارق البسمة وجهه! يحادث نفسه في وجومٍ، قائلًا:

- هل حان موعد رحيلك يا بُني؟

لم يأْنس قلبي برؤيتك، ولم تكتفِ عيني من احتضانك! كان الله في عون أخي وأبي وأجدادي وأجداد أجدادي، كيف لهم يطيقون كل هذا العذاب! أرسلت ابنتي طوعًا إلى بلادٍ غريبة لا تحمل تقاليدنا ولا عاداتنا، أشفق على قلبها الصغير أن يتألم، وفؤادها المحب أن ينفطر!

وضعت يا بُني بيني وبينك سدًّا منيعًا، حتى لا تتعلق روحي بك، كي أعتاد فراقك، أعلم أن تلك اللحظة قادمة وأنها بأمر الملك، وله حكمة لم تصل إليها عقولنا إلى الآن.

أؤمن يارب بكل ما جلبته لي من الشر قبل الخير، لأني أدرك جيدًا أن وراء كل أمرٍ سيئ رحمةً منك، فالظلمة التي أحاطت بيونس وهو في بطن الحوت ما كانت إلا عقابًا ليأسه وهروبه من دعاء قومه لعبادتك، وإلا ما كانت القرعة التي اقترعها أهل السفينة التي كان عليها أكدت اختياره، ثلاث مرات متتالية، بأنه هو الشخص الذي سيلقون به في البحر، عندما هاجمتهم أمواج عاتية كادت أن تقلب السفينة رأسًا على عقب، حينها أدرك يونس أنه العاصي وأن الأمر ما هو إلا لحكمة من الله، ونجاه منها بعدما لبث في بطن الحوت أربعين يومًا، لنْ أيأس يارب، وسأدعوك بدعاء يونس وهو في بطن الحوت:

"لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين"!

ظل يردد الأستاذ "جمال البصري" الدعاء وهو يبكي بشدة، قاطعه عن خلوته نداء زوجته وابنه عمر، الذي احتضن أباه بعدما رأى دموعه كالسيل لم يستطع أن يوقفها، لم تفهم أمه سبب بكائه الشديد، لم يتعجب عمر لأنه يعلم السر الذي أخفاه والده عن الجميع.

تعلم زوجته أن حماها "والد زوجها" وهو جد عمر ويامن وحبيبة، ليس مصريّ الجنسية؛ فهو من أصل عراقيّ، استقر بمصر وتزوج بوالدة زوجها وأنجب زوجها الابن الأكبر، وابنه الأصغر عمَّ أولادها الذي تُوفّي وهو شاب صغير في ظروفٍ غامضة، بميتةٍ يشيب لها الولدان!

استطاع عمر أخيرًا أن يُهدئ من روع أبيه وأمه، وبدأ عقله يخبره أن هناك حلًّا لكل ما يحدث، من خلال الكتب التي قرأها ولا بد من البحث والتقصي عنه جيدًا، لم يهنأ بنتيجته، ولم يهنأ بتفوقه الذي حققه، وإن كانت خطيبته "رهف" هي الأولى هذه السنة، ولكن ما يهم أنه من الفائقين وفي انتظار مكالمة من الكلية تخبره بموعد سفره، والدول التي سوف يذهب إليها، ظل يدعو أن تكون بغداد هي المدينة التي سيذهبون إليها، ولكن دائمًا ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن!

أفاق عمر على صوت نغمة هاتفه، ليجدها الموظفة الإدارية في الجامعة، تخبره أن الرحلة ليست إلى بغداد، وربما أيضًا تتأجل للعام القادم، مسح عمر وجهه ببطن كفه مغتاظًا مما سمعه على الهاتف، تهيأت له الكتب والروايات التي قرأها وكلمات أبيه عن التاريخ، وعن أجداده مستحضرًا نسبه الأصلي الذي لابد له وأن يتفاخر به.

يأتي الصباح وعمر قابع على سَجادة الصلاة يفكر في مرض أخيه، خوفًا من أمرٍ يردده عقله وينفيه قلبه بشدة!

كيف يجتاز هذه المشاكل التي ألمَّت به وتراكمت عليه وأسرتْه، إيمانه أن لكل عقدة حلًّا، وأن من يتوكل عليه فهو قطعًا حسبه، جعله يقرر عدم

الاستسلام ومجابهة الظروف وعدم الالتفات لمن حاولوا مسبقًا وفشلت مساعيهم، يتجول بين الأرقام التي على هاتفه ليئْتبه لرقم رئيس كلية الآثار الذي قابله مراتٍ عدة، وسرعان ما ضغط على زر الاتصال!

فالفكرة التي خالجته لا يوجد لها وقت كافي لدراستها ولا تحتمل التردد..

ظل يحاول الاتصال مرارًا ولكن لم يجب أحد! وبعد محاولاتٍ عديدة، أجاب الدكتور "مطاوع" أخيرًا!

تفاجأ عمر وترددت الكلمات أن تخرج من فمه، ليجد صوتًا رخيمًا يحدثه بنبرة وقورة، قائلًا:

ـ تفضل يا بُني ماذا تريد؟

ـ نعم يا دكتور أنا طالب من الطلاب الفائقين اسمي" عمر جمال".

ـ نعم، "عمر جمال البصري" أمامي قائمة بالأسماء، أتعتذر من عدم السفر؟!

ـ لا يا سيدي، كنت أود أن توافق على منحي فرصة التنقيب عن أثرٍ ما ولكن في بغداد!

هل هناك فرصة لتغيير وجهة السفر إلى بغداد بدلًا من إسبانيا؟

ـ وما الذي يثبت أن هناك أثرًا يستحق السفر؟!
ـ أنا يا دكتور عراقي الأصل يمكنك التأكد من بطاقة الهُويَّة.

معي ما يثبت أن نسبي يمتد إلى هارون الرشيد ومنه إلى العباس ابن عم الرسول، وعائلة أبي مازالت تعيش هناك، يمكنهم مساعدتي في رحلة بحثي الأثري، ربما أصل إلى بعض المعلومات أو بعض الآثار الخفية التي لم تُكتشف بعد!

وما إن سمع العميد حديث عمر حتى انخرط في حالة من الصمت، لم ينبس على إثرها ببنت شفة، إلى أن جاء رده مقتضبًا، وقال:

- حسنًا يا عمر سأفكر في الأمر وسأعلمك، وأغلق الهاتف. سرت علامات الأمل تنساب في أرض نفسه القاحلة بعدما جفت تمامًا وتشققتْ عطشًا، والآن حان دوره ليطمئن على أخيه في المشفى ويسانده قدر استطاعته، الساعة الواحدة ظهرًا، الجميع يجلس على المقاعد الحديدية المثبتة في المستشفى الحديثة باهظة الثمن، وهي التي حددها الدكتور لتَوفُّر الأجهزة الحديثة بها، التي تساعده في إجراء العملية، وتكون سببًا في ارتفاع نسبة نجاحها.

يترقب الجميع كلٌّ في ملكوته يسبح في أفكاره، لم يلفت انتباههم مرور ساعتين كاملتين على العملية، فالكل يعرف أن عملية الزائدة الدودية تستغرق أقل من ساعةٍ واحدة، فُتح باب غرفة العمليات على مصرعيه وخرج يامن ممدًّا أعلى السرير المتحرك، استقبله والداه بلهفة، في نفس الوقت رن هاتف عمر، وإذ بعميد كلية الآثار على الهاتف، استشعر عميد الكلية بارتباكه وقلقه، وقال له بصوت سريع:

- ابعث بصورة من الأوراق التي تُثبت صحةَ ما تقول، في رسالة على أحد رسائل وسائل التواصل الاجتماعي وماتنوي القيام به، لأتواصل مع جامعة بغداد، على أن يتم السفر في خلال شهر من الآن. ابتهج عمر للخبر الذي سمعه من عميد الكلية، اطمأن على أخيه وقبَّل جبهته، وقال له قبل أن تستفيق قسماته من أثر البنج:

- حمدًا لله على سلامتك يا أخي ...كل الأمور ستصبح بخير..

- أُحسنُ الظن بربي وأثق في كرمه أنك ستكمل حياتك إن كَتب اللهُ لك عمرًا على البسيطة إن شاء الله. استأذن عمر سريعًا وتحرك، متجهًا إلى المنزل لتحضيرات السفر ومن ثَمَّ اتجه والد يامن ليدفع تكاليف العملية، ليُصدم صدمة منعته الحديث دقائق، عندما أخبرته الموظفة بالمشفى

تكاليف عملية استئصال الكلية اليمنى وليست الزائدة الدودية، دفع الوالد التكاليف وقلبه ينزف دمًا، لم تحمله قدماه كثيرًا، استطاع أن يتحمل أعباء العملية كاملة، فعمله "كمهندس ديكور" جعله ميسورًا على نحو متوسط، ليس بالغني ولا بالفقير.

هاتف الوالد ابنه عمر متأسِّيًا وبعد نقاشٍ وجل اتفق الاثنان على عدم إعلام والدتهما، حتى لا يسري داخلها الخوف والقلق، خاصة أن ليامن منزلة خاصة في قلبها؛ فهو صغيرها ومدللها وتخاف عليه بشدة.

باتت الملامح مبهمة، بالكاد ميز "يامن" ابتسامة أمه، وذاك الوجه الذي بدا عليه التعب والإرهاق، وتلك العينين المنتفخ أسفلها لأبيه، ممسكًا يديه في حنان، مزدانًا بجانبين من الشَّعر فِضيَّيْنِ، وجبهة عريضة خطها الزمن بقلم الصبر، وتلك الحاجبين الكثيفين يحتويان تلك الأعين المسبلة الحزينة دائمًا.

سمع "يامن" صوت مريضٍ على السرير المقابل، يسعل بشدة ظلَّ ينادي الممرضة ولكن دون جدوى! أشفق عليه يامن، وقال له "هل يمكنني المساعدة"؟! قال الرجل بصوت متحشرج:

ـ الماء ... أريد ماء!

استند يامن إلى العمود الذي يحمل قارورة الأكسجين، مد يديه إليه ممسكًا بزجاجة الماء لتصل بعد عناء إلى الرجل، أظفر ليامن شاكرًا إياه:

ـ متعك الله بالصحة والعمر المديد يا بُني، سمعت أنك قمت باستئصال "كُليتك"، هل كنت تشكو بها شيئًا؟!

بنبرة مقتضبة أجاب يامن، وعلامات الألم بدت على وجهه جرَّاء العملية:

ـ "لا". قال له الرجل بنبرة داخلها الشك:

- وهل تثق في أن كُليتك لم تُسرق؟ ألم تسمع بسرقة الأعضاء المنتشرة في هذه الأيام؟

ارتاب يامن قلقًا، فلا يدري بمن يثق ويصدق! هل يثق في صديقه والدكتور؟! أم يثق في كلمات ذاك الرجل الذي بدا كلامه مقنعًا؟!

الفصل الثالث

بعدما عمَّ السكونُ الليلَ وانْطفأ نور القمر، وأخفى الضباب صفحة نهر دجلة في تلك المدينة (مدينة السلام)، "بغداد" التي عانت ويلات من الأحداث التي مازادت أهلها وساكنيها إلا قوة وعتادًا، وإيمانًا راسخًا في القلوب، فلم يستطع أن يكسرها غازٍ أو معتدٍ.

باتت أبية ولِمَ لا وهي ابنة الطائي في العطاء! هي "بغداد"، ذاك التاج النادر الذي يُتوجُ به العالم بتاريخها المرصَّع بالأحجار الكريمة، الزبرجد وهم علماؤها، والجشمت وهم قادتها، والعقيق وهم أدباؤها.

"بغداد" وقوة بأسها في مواجهة الأعداء، المعارك التي انتصرت فيها وإن بدت خسارتُها هي السهم الذي مزق نياط القلب، عندما أفجعها المغول، وأُخِذ منها تلك المدللة على مر عصور الخلافة وألقاها دون رحمة في نهر دجلة، لتنزف الدماء السوداء وإن ذابت أوراقها، فالكلمات قابعة في الصدور وهي الميراث والأصل.

لا يعلم "المغول" أن تلك الأحبار التي خطتِ الكتب كانت من دمائهم وحياتهم، لا يعلم المغول أن تلك العقول وذاك الإبداع باقٍ لا محالة؛ فمغول اليوم يشبهون مغول الأمس، ودماء العلم مازالت تُنتهك، كانوا رمزًا لقهر العلم ودحضِ المعرفة، كاختبارٍ مريرٍ على مر العصور فكان المغول ما هم إلا بشر ولكن بدون الباء! وكان جزاؤهم أن ينالوا شهادة الصمود وهي جائزة صاحب النفس الطويل!
حطت أقدامهم ساحة مطار بغداد، الطلاب الخمسة الأوائل في رحلة مجانية من الدولة لمدة سبعة أيام، لطلاب من كلية الآثار جامعة القاهرة، وكان من بينهم "عمر جمال البصري"، الطالب البورسعيدي، الذي كثيرًا ما انتظر تلك اللحظة بكل ما تحمله الكلمة من معنى فبعد ما يقارب عام، بعد أن ظهرت النتيجة وبعد كل هذه التحديات التي كادت أن تحول بينه وبين سفره

إلى بغداد، وبعد أن فقد الأمل مرات عدة، سيتحقق ذاك الحُلم أخيرًا، بغداد بلاد أجداده (بلاد النهرين)، بغداد تعني مسجد الخلفاء، المدرسة المستنصرية، المسجد الكبير، المدينة المدورة (مدينة السلام)، قصر الذهب، هارون الرشيد وبيت حكمته، وتلك الكتب في كل العلوم، ساعاته الدقاقة التي تعجب والي الأندلس من تصميمها، المدينة المدورة وحصونها الخفية، وقناتها التي تدرُّ عليها الماء طيلة العام، عبيرها الذي يُنعش الأنوف، بدت رائحتهم تملأ المكان كزجاجة عطرٍ من نوع نادر معتَّقة لسنوات يفوح عبيرها شذًى.

استقل "عمر" الحافلة مع أصدقائه، التي تنقلهم من مطار بغداد إلى فندق مطار بغداد الدولي الذي يبعُد دقائقَ عنِ المطار، يحوي برنامج الرحلة، كلَّ الأماكن الأثرية التي تخيلها عمر ووثَّقها عبر الكتب وكان يتمنى زيارتها، ومن أهمها "مدينة بابل" بحدائقها المعلقة، "المدرسة المستنصرية" أقدم جامعة في التاريخ، "قصر الخلافة العباسي"، "مسجد الخلفاء". يتملك عمر الفضول أن ينقب في كل الأماكن بهدف عمله كمنقب أثري إسلامي لأهدافٍ دراسية، ولأهدافه هو الشخصية، بعدما علم حقيقته، وأصله ونسبه وذاك السر الذي أفشاه والده، وصدمته الكبرى عندما عَلِمَ بالأمر؛ فهو الوحيد في عائلته يعلم ذاك السر العظيم، استنتج جيدًا السبب الحقيقي وراء شغفه وعشقه للتراث الإسلامي، وذاك الحنين القابع داخله، وتلك الدماء التي تسري في عروقه كل هذا لم يكن مصادفة!

ولكن للأسف تلك الدماء فاسدة بالوراثة لسبب يجهله، بعدما ارتاح جسده من عناء السفر، بدأ يرتب أفكاره ويضع نصب عينيه، كل المعلومات التي حصل عليها من أبيه وبعض الثغرات المهمة التي لا يُوجد لها إجابات واضحة، بدت الصورة تتضح؛ فهو تأكد من شجرة عائلته وأنه يحمل دماءً عراقية ونسبه يعود "إلى هارون الرشيد"، ومنه إلى العباس ابن عم الرسول (صلى الله عليه وسلم). قرر عمر الولوج في أعماق التفاصيل كي يصل إلى معلومة وتكون بمنزلة طرف الخيط.

فتش عمر في أغراضه ليبحث عن الأرقام التي أعطاها له والده، مؤكدًا أنها لأحد أقربائه في بغداد ويعلم القصة كاملة، وفي أثناء ما كان يفتش في حقيبته لفت نظره صورة خطيبته "رهف" التي يصفها بالفتاة الأكثر خجلًا في العالم، كشفت عن نفسها وعن حبها له بعد ثلاث سنوات قدرًا، شكر الظروف مرارًا التي جعلته يلتفت إليها، فيعلم بعد ذلك أنها كانت تراقبه بصمت معجبة بتفوقه وهدوئه تدعو الله أن يكون لها، يبتسم عمر ويتذكر عينيها الخضروين، ووجهها الذي يتشرب بالحمرة دائمًا، من شدة الخجل وحجابها الذي دائمًا ما تجذبه إلى أسفل حتى لا يرى أحد عينيها، أضاءت من بعيد وميضَ منارتها العالية ومضةً واحدة، جعلت سفينة الحب تتجه نحوها، تلك الومضة التي أنقذت السفينة من الغرق وجعلت عمر هو الآخر يراقبها من بعيد، حتى انفلتت زمام الأمور من يده، لا يطيق الحديث معها عبر وسائل التواصل بالإنترنت كمعظم أصدقائه، من شدة حبه لأخته الوحيدة، ولكنه الآن لايستطيع أن يسيطر على نفسه، يريد أن يتقرب منها أكثر، ولكن سرعان ما يرى الرجل في القطار في ذاكرته وهو يحذره، فما يلبث إلا أن يخاف أن يلوث هذه العيون الخجلة التي تسحره، استقر أن يكلم والده، الذي رحب بالأمر بشدة وخطبها مباشرة بعد انتهاء امتحانات نهاية العام، مازال عمر يحمل صورتها وصورة عائلته، داعيًا في نفسه:

- يارب اجعل أمس عائلتي وغدها بلا فواجع، يارب أرضى بقضائك وقدرك، اللهم اجعلها بردًا وسلامًا، واجعلني بك أقوى!

أخذ الأرقام التي وجدها أخيرًا في حافظة الأوراق خاصته، ليجد أسفلها رقم الأستاذ" ظافر مسعود البصري"، هو ابن عم أبيه ويعمل مدرسًا في كلية الآداب في إحدى جامعات بغداد، ويحضر للدكتوراه الثانية في موضوعٍ عن "الدجل والدجالين" منذ عصور الخلافة الأولى، إلى يومنا الحالي وأثرها على الأفراد والمجتمعات، لاسيما النساء اللواتي يستنزفن الغالي والنفيس عند الدجالين والمشعوذين، إلا من رَحِم منهن في جميع الأوساط. ظل عمر ينتظر إجابة الرجل عنه بعدما طلب الرقم بحماس، ليتلقى عمر

جملة مفادها "السلام عليكم، من على الهاتف"؟ رد عمر قاصدًا أن يتحدث باللغة العربية الفصحى، وأردف:

ـ وعليكم السلام معك عمر جمال البصري من القاهرة.

ـ نعم نعم، أهلًا بك يا بُني في انتظارك منذ مدة، هاتفني والدك وأخبرني بالقصة، مرحبًا بك يا بن الغالي، سأكون أسفل الفندق بعد صلاة العشاء لآخذك إلى بيت جدك الكبير وجد أبيك لتقيم هنا معنا.

ـ معذرة يا عمي ولكن عليَّ البقاء هنا مع زملائي، وعدتُ عميد الكلية بأن لا أترك مجموعة الرحلة وأن أشركهم معي في البحث والتنقيب.

ـ حسنًا يا بُني على راحتك.

قابل عمر مشرف الرحلة واستأذنه أن يذهب مع عمه، ووافق شريطة أن يذهب معهم، وبالفعل ترك الجميع في الفندق، وذهبا بعد صلاة العشاء. رأى عمر رجل يقف بجانب سيارته، يحمل بعض ملامح والده وملامحه المميزة، الشعر الأجعد الكثيف، والملامح الحادة واللون الخمري المشرَّب بحُمرة خفيفة.

قابل عمر "الأستاذ ظافر" بالتحايا والأحضان، وسارا معًا حتى سيارته البيضاء، ماركة "فولكس واجن"، موديل قديم، ظل عمر يفتش بعينيه مدينة بغداد ليلًا، لايكاد يصدق أنه هناك، لاحظ نفس الزحام والسيارات التي تنتظر أن يفتح لها الطريق بعد الانتظار الطويل، عدا أن الكباري في بغداد قليلة وليست متقنة وكثيرة ككباري القاهرة، والشوارع لا تختلف كثيرًا عن شوراع القاهرة، عدا أن ذاك النهر الذي يراه هو نهر الفرات وليس نهر النيل! وتلك السفينة العائمة المزينة بالإضاءات الملونة، ومراكب الصيد الصغيرة التي يكاد يراها خلف الظلام، وانعكاس الأنوار على النهر مع بريق الأمواج الساكنة، وكأنه في موطنه لا يلمس فرقًا، ليقطع عنه تأمله عمه ظافر، قائلًا:

- بغداد نهارًا لها رونق آخر، سأريك إياها غدًا.

وصلا أخيرًا إلى البيت الكبير في العاصمة بغداد بجانب المدرسة المستنصرية، أقدم جامعة في التاريخ بعمارتها الإسلامية العريقة، قال عمر لعمه:

- لابد من زيارتها نهارًا حتى أراها من الداخل وأمتع ناظري وأفتخر بحضارة أجدادي في الفن والعمارة، فهمت الآن سبب تميز أبي وزوقه الرفيع ولمساته وفخامة أعماله. ابتسم ظافر، قائلًا بفخر:

- ومن غيره يكون بارعًا فيها؟! فوالده وجده كانا من أشهر فناني الزخرفة في بغداد، لمْ أمتهنها على الرغم من براعتي فيها، أحببت علم الاجتماع أكثر، لك أن تتخيل تلك العائلة الفريدة، مع كل لحظة فخر واعتزاز بذاك النسب والأصل تحدث لهم فاجعة تفقدنا وتفْقدها الثبات! تجعلنا نرجو أن نعيش بنسب إنسانٍ عادي، تاجر أو مزارع، ولكن في أمان.

كُتب على عائلتنا أن من له ولدان أوأكثر لابد أن يموت صغيره حتمًا حتى يحمدَ الله، من مات ولده الأ صغر في سنٍ صغيرة أو في المهد، حتى لا يُفجع فيه عندما يصبح شابًّا نبت شعر شاربه، وأصبح رجلًا يُعتمد عليه. نظر إليه عمر مشفقًا عليه، سائلًا إياه:

- هوّن على نفسك يا عم ظافر هل حدث معك أمر مماثل؟!

- لم أتزوج إلى الآن، أخشى أن يحدث لي ما حدث لأبي عندما فقد شقيقي الأصغر بميتة يشيب لها الولدان، لا داعي لذكرها حتى لا أبثَ في داخلك الرعب، معذرة يا بني، فكل من مات من عائلتنا دائمًا ما يكون الشقيق الأصغر وليس هذا فحسب، بل دائمًا ما تكون طرق وفاتهم غامضة وغريبة وشنيعة في الوقت نفسه، حتى أصبحت عائلتنا مادة للإعلام والفضائيات وأخبار الحوادث، يطلقون قنواتهم ومذيعيهم، يقفون على كل

فاجعة يحللون ويناقشون، حتى إذا ما انتهت كل الأخبار، يفتحون قضية قديمة أرهقت قلوبنا حتى نسينا تفاصيلها.

يستنزفون الجُرح مجددًا بعدما كاد أن يندمل، أصبح النقاش مستباحًا للجميع، وفي كل الأوقات... بعض الأحيان يستجوبون أحد أفراد العائلة بقرارٍ رسميّ، باتت جراحنا مشهدًا في عملٍ درامي يستمتعون في متابعته، وأن ما يحدث لنا ظاهرة طبيعية كالزلازل والبراكين!

حاولنا جاهدين أن نقف على حل ينجينا من عذابات الماضي، صرنا كقطيعٍ من الأُسُود تستهدف بندقية الصياد أشبالها، فكرت جديًّا أن أهاجر إلى مصر كوالدك حتى أتزوج وأنجب وأعيش الحياة التي تمنيتها، ولكن بلا جدوى، قيدني الخوف بأغلاله، والمصير المحتوم بسطوته.

تعاطف عمر بشدة مع كلمات العم ظافر، وبدأ يسيطرعليه حالة من الرعب والهلع، كيف له أن يعايش كل هذه الحوادث، لم يلبث إلا أن أمسك معدته التي آلمته بشدة خوفًا على أخيه الذي يشاركه الغرفة منذ الطفولة يتذكر عصبيته وخناقهم المستمر على أتفه الأسباب، ويبتسم عندما يتذكر مشاركته اللعب وخفة ظله، وكيف قام بضرب أحد الأولاد عندما حاول أن يضربه.

المستقبل؛ فهو في علم الغيب وهو يُؤمن تمام الإيمان بذلك، وإن تخللت أساريره بعض من الريبة والقلق نتاج ما سمع.

الأمر المهم أنه استشعر مدى المعاناة التي يعانيها عائلته في بغداد ولاسيما معاناة السابقين، التي تم توريثهم الهم والغم رغمًا عنهم.

بعدما حطت أقدامهم بيت العائلة الذي يتكون من ثلاثة طوابق يعيش بداخله حوالي ست أُسَر كلهم ينتمون إلى العائلة، دخل عمر مع عمه ظافر منزله في الطابق الأول ونادى كبار عائلة أبيه، أولاد عمومه، وعمة واحدة من الرضاعة لأبيه، التي سرعان ما احتضنت عمر واحتوته بحنانها، وظلت

تبكي بشدة عندما رأته يشبه ابنها الذي تُوفي من قريب، فعلم عمر بديهيًّا أنه لابد وأن يكون الابن الصغير!

بعد أن أنهى الجميع ترحيبه بعمر، وبعد تقديم مائدة العشاء، وتلك الأطباق المنبسطة منها، تحمل المشاوي واللحوم والأطباق المقعرة التي تحمل اليخنات العراقية الشهيرة، والحساء الذي كان أساسيًّا..

وتلك اللوحة التي رسمها فنان ليدقق عمر النظر مليًّا، فيجدها صحنًا كبيرًا ممدًّا من السلطة بجميع الخضروات، حتى إنه انزعج من أحد الأفراد الذي اختطف (حبة أُلفت الأحمر) بلونها الزاهي التي تتوسطها، فلم يلبث إلا أن أخرج هاتفه المحمول وصوَّر تلك المائدة من المطبخ العراقي، التي بَهَرَتْهُ، فتعجب الجميع، قال لهم بابتسامة رقراقة:

- لا تنسوا أني أحمل دماءً مصرية، دائمًا ما نحبذ توثيق كل شيء!

انفرجت أفواههم على آخرها ضاحكين على خفة ظله، التي سرعان ما تجاوبوا معه وبدأوا يتجاهلون مأساتهم قاصدين، حتى لا يُشعرون ضيفهم وابن عمهم بالضيق والزجر، كما أنه واجب من واجبات الضيافة التي يتميز بها أهل المدينة.

بعدما أنهوا العشاء جميعًا، حمحم عمر، ففهم البعض أنه يبغي الحديثَ مجددًا عن ذاك اللص المجهول الذي سرق أمانهم وراحتهم سنوات! يقاوم البعض جاهدين في حين يستسلم البقية فيموت داخلهم الأمل، يزاولون أعمالهم بابتسامةٍ تُخفي بحورًا من الدموع، فقدور الأمان التي امتلأتْ وفاضت ياسمينًا، يغترف منها البشر حولهم وهي عليهم محرمة!

بوجه بشوش همس عمر بخجل، قائلًا:

- شكرًا على المائدة وشكرًا على حسن الضيافة، لا أُخفي عليكم سرًّا، أنا أشعر بالقلق أضعاف ما كنت أشعر به وأنا في مصر، ولكن دعونا نضع

الجانب الإيجابي نصب أعيننا، سأطرح عليكم سؤالًا، شغل معظم تفكيري وأنتظر إجابتكم، وتلك الإجابة هي التي ستحدد الطريق، وتضع النقاط أعلى حروفها.

- هل يُعقل أن أحفاد العباس عم الرسول يُجانبُهم اليأس إلى هذا الحد بالاستسلام والإذعان؟! هل يعقل أن يخسر أحفاد هارون الرشيد الأكثر سيطًا وشهرة على مدار التاريخ؟!

أجاب العم ظافر بحزم:

- لا، ..لا يُعقل بالتأكيد، شغل تفكيري أيضًا هذا السؤال لذلك ما زلتُ متمسكًا بالأمل، وسأظل!

تحمس الباقي وبدأت تتعالى كلمة "لا" بصوتٍ واحد..
لن نستسلم، ولن نخضع لابد أن نعرف سبب كل هذا ستسألنا الأجيال القادمة، أننا استسلمنا ولم نحاول!

أردف شيخ كبير منهم، تتناثر خصلات شعره الأبيض أسفل طاقيته الصوفية الزرقاء، قائلًا بصوت رخيم:

- هناك أمر جاء وقت إخباركم به، كنت أتردد أن أفشيه لكيلا تُجَنَّ النساء وتذهب إلى الكهنة والدجالين، فانتظرت الوقت المناسب وقد حان بقدوم ذاك الشاب الصغير الذي أتوسَّمُ به خيرًا، فحدسي يخبرني أنه صادق والخير قادم على يديه إن شاء الله.

منذ نحو عامين، جاءني اتصال هاتفي من رجلٍ غريب، قال لي إنه حاول الوصول إلى أحد أفراد العائلة مرارًا، إلى أن وصل إلى رقم هاتفي صدفة من أحد الصحفيين، عندما سمع عن قصتنا في الإعلام، وهو شيخ مسجد كبير في فلسطين، ظفر بتلك الشكوك يحاول إثباتها مؤكدًا لي بما لايدع مجالًا للشك، أن ما يحدث لنا هو سحرٌ أسود بابلي، وهو السحر المعروف

"بالكابالا"، الذي كان يستخدمه "زورستر"، وهو اسم شيطان يتلبس فقط السحرة المشهورين وهو موجود في كل العصور، يقوم بأعمال السحر بأمر من شخص ما ويتجدد ذاتيًّا خاصة وإن كان بالدماء، والسحر لابد وأن يكون مدفونًا ومخبئًا في مكان من الأماكن المحصنة من الجانّ والخفية عن أعين البشر، وتحوي قرابين للشيطان من حيوانات ميتة مكتوب عليها أسماء المسحورين .....

- سرعان ما هلل الأستاذ ظافر بلغته العراقية التي لم يفهمها عمر، وبدا على قسمات وجهه الغضب الشديد، استوقفه عمر قائلًا:

- رجاءً، تحدث باللغة العربية الفصحى حتى أفهم ما تقول.

- أقول له كيف لا تخبرني منذ عامين، جانبني الشك حيال هذا الأمر واستبعدته، لأني لم أجد إشارة أو دليل.

- قال الشيخ الكبير بنبرة أكثر حدة:

- لم أخبر أحدًا بالأمر؛ لأني فكرت مليًّا، كنت سأفتح عليكم بابًا من الشر ربما يفتك بالكبير والصغير، أعلم جيدًا ما هو السحر الأسود وتحديدًا سحر "الكابالا" الذي يصعُب إبطالُه أو فكه، فهو سحر قديم كلدغة الحية التي لا نجاة من لدغتها إلا بالموت!

- قال ظافر مغتاظًا غاضبًا:

- العلم تطور يا أخي، ويمكننا تتبع الأمر بالبحث وسنعلم من كتب التاريخ..

من أفسد دماءنا!

وكيف يؤذينا وهو لا يعرفنا؟!

رد عمر بعد تفكير عميق:

ـ ربما آذاه أحد الأجداد، فأورثنا السحر انتقامًا.

قاطعه العم ظافر، قائلًا:

ـ لو تم ترتيب أفكارنا جيدًا سنصل إلى الفاعل وسنبطل ذاك السحر بإذن الله بكل سبيل.

تذكروا قول الله تعالى "قُلْ لن يُصيبَنا إلا ما كَتبَ اللهُ لنا".

هز عمر رأسه، قائلًا "ونعم بالله"، قال لمشرف الرحلة الذي ظل صامتًا يسترق السمع في ذهول، "ما رأيك يا دكتور"؟

أردف مشرف الرحلة مدهوشًا:

ـ كأني في حلم، لو حُكيَ لي هذا الأمر واللهِ ما صدقتُ، كان الله في عونهم وكان الله في عونك يا عمر، كنت أغبطك على ذاك الأصل والنسب الذي تنتمي، وكم شخص في العالم حفيد هارون الرشيد؟!

كم أشفق عليكم الآن، إذا أردت أن نظل هنا الليلة حتى لايضيع الوقت فيها، أنا معكم ولن أخبر إدراة الجامعة بالأمر، فما أفعله معك واجب إنساني، لا تيأس وحاول، وتعلم من العظماء عندما كانت تضعهم الظروف في مواقف مشابهة.

ـ شكرًا يا سيدي، نعم أرجو أن أبيت هنا الليلة، وأرجو من الله أن أصل إلى حل قبل أن ينتهي الأسبوع المحدد وأسافر بلدي صِفر اليدين، وأجلس مع أبي وعائلتي على كرسي اليأس أنتظر مصير أخي ومصير هؤلاء الأولاد الصغار، يعلم الله من منهم يُوارى بطريقة أو بأخرى، ومن منهم سوف يجلس على مقاعد اليأس المحشوة بالشوك، تتبدل طبائعهم وتتغير أمزجتُهم رغمًا عنهم، يفتشون عن الموت في كل مكان ولا يجدونه!

استلقى عمر على سرير خشبي بقوائم مزخرفة، من أسفل سقف الغرفة إلى أعلاها، يحاوطه قماش من التل الأبيض الشفاف، لحمايته من الذباب والناموس، في بادئ الأمر لم يستطع عمر النوم يساوره الأرق، يفكر ويحلل شخصيات الجميع، إلى أن فاز عليه النوم فوزًا ساحقًا وغطَّ في نوم عميق!

رأى نفسه في حديقة شديدة الجمال والعظمة، مساحات خضراء تعدت حدود بصره، خيول بيضاء بأجنحة بلون اللؤلؤ تعلو وتطير في الأفق، رأى رجلًا يرتدي عمامة سوداء وجلبابًا أخضر، لفت نظره في تلك العمامة ذاك الحجر الكريم الذي يتوسطه باللون الفيروزي المموَّه، الذي نزعها عنه وحطَّ بها إلى جانب نافورة حجرية صغيرة، وجرة صغيرة من الطين، نظر داخلها ليجدها ممتلئة عن آخرها بالذهب، رفع سبَّابته وأشار بها إلى سور حديقة حديدي مُعلق به سترة سوداء حديثة!

انتفض عمر من مكانه سريعًا مستيقظًا على صوت أذان الفجر، بعدما هدأت نفسه، توضأ للصلاة وخرج إلى المسجد الصغير أسفل البناية التي دائمًا ما تُصلي فيه العائلة يوميًّا جميع الفروض، وبعد انتهاء الصلاة جلس مع الشيخ الكبير ذي الشعر الأبيض المتلألئ الذي يغطي معظم رأسه طاقية بيضاوية باللون الأزرق، قص عليه الرؤية التي رآها قبل الفجر..

قال له في تفسير مارآه، مجتهدًا كما أنه ليس خبيرًا في تفسير الرؤى:

- أبشر الخيول الطائرة؛ هم الأجيال التي سبقتنا لهم أجنحة كالملائكة دليل على مكانتهم العالية ومنزلتهم، قطعًا ما حدث لهم ابتلاء عظيم ولكنهم بذلك ارتقوا إلى منزلة عظيمة تشبه منزلة الملائكة، وهذا دليل ما يحدث لهم، فلا يملك إنس ولا جان أذية إنسان، فهم لا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا إلا بإذن الله.

أما الرجل صاحب العمامة، فمحتمل جدًّا أن يكون من ذاك العصر الذي حدث فيه السحر فيكون خليفة من الخلفاء الذين نحمل دماءهم، هناك احتمال

أن يكون هارون الرشيد، أو أحد أولاده، فعلى ما أذكر أن تاجه يتوسطه جوهرة فيروزية هو وولده "المأمون"، أما جرة الذهب فالله أعلم، وأما السترة الجلدية السوداء فهي إشارة تحذيرية لمن يملك تلك السترة، والله أعلم! ومتى ظهرت علامة واحدة من رؤيتك فتأكد أنها ستتحقق في المستقبل القريب لك، ولكن تفاءل واستبشر خيرًا. جلس "عمر" بعد الفجر يتلو آيات القرآن، حتى قوله:

"وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله".

ظل يرددها بتوسل ورجاء للملك الذي يحمل مقادير الأمور جميعها، يعلم "عمر" جيدًا أهمية الدعاء، فقد نصحته خطيبته "رهف" أن يداوم عليه يقينًا بالإجابة عندما علمت بالأمر.

ظل عمر جالسًا ممدًّا قدميه في المسجد، بعدها بدقائق معدودات جاء الأستاذ "ظافر" مسرعًا، بأنه تواصل مع الشيخ "مريد" بعد صلاة الفجر مباشرةً، وهو صديقه من فلسطين، ليسأله عن ذاك الشيخ الذي تواصل مع أخيه الشيخ الكبير، وقصَّ عليه الأمر إلى أن أخبره سريعًا أنه يعرف مكانه وهو خبير بفك سحر "الكابالا" تحديدًا وبلا عودة، وأنه سيزوره في منزله ليناقش الأمر، ويسأله عن حلول، سرت في أوصال عمر راحة نفسية تتجلى على قسمات وجهه، وبدأ يفكر كيف يصل إلى الذي تسبب في ذاك السحر.

أغفى قليلًا في غرفته، رن الهاتف معلنًا خبرًا مهمًّا آخر، فرك عمر عينيه وأمسك الهاتف بعدما ترك من يديه كوب عصير البرتقال الذي ارتشف منه رشفة واحدة، ليخبره صديقه على الهاتف أن هناك أثرًا تم اكتشافه اليوم بجانب حديقة بابل المعلقة، عبارة عن جرة صغيرة من الذهب تعود إلى المدة الزمنية التي كان يعيش فيها "المأمون"، بجانبها كتاب قديم، يقال إنه بخط يد المأمون؛ لأنه يحمل ختم الخلافة الخاص به وقتها، طلب منه أن يلحقا بهم مسرعين؛ فهي فرصة عظيمة لدراسة هذا الأثر، بما أنهم في

بغداد، ارتدى عمر ملابسه سريعًا وودَّع الجميع، واعدًا إياهم أن يزورهم مرات عديدة، وأن يراسلهم إذا جدَّ جديدٌ.

استقل سيارة العم ظافر الذي ذهب مع مشرف الرحلة، ليتواجهوا مع باقي أفراد الرحلة في بابل، التي تبعُد مسافة ثلاثة وثمانين كيلو مترًا من بغداد بالسيارة، ظل عمر طيلة طريق السفر يتأمل من شباك السيارة المناظر الطبيعية حوله، متمتمًا "سبحان الله"، ما أجمل تلك المدينة الساحرة، وصلا أخيرًا بعد عناء السفر إلى حدائق بابل المعلقة، ليشاهد جمالًا أخَّاذًا لتلك المدينة التي تسحُر العيون بجمالها الفريد، يجعل من يطل عليها بنظره، لم يلبث إلا أن تتسمر قدماه مستمتعًا بتلك التفاصيل الدقيقة.

ظل عمر يسبح في ملكوت الحديقة بأحجارها وأعمدتها وتلك الدرجات السلمية والأحواض تتخللها، تحمل كل درجة حديقة صغيرة بديعة المنظر.

درس عمر وزملاؤه أن تلك الحديقة بُنيت إبان عصر "نبوخذ نصر"، أحد أهم الملوك البابليين في ذاك العصر، يقال إنه أنشأها لزوجته تبجيلًا وتعبيرًا عن حبِّه لها وتكريمًا لها ولمكانتها في قلبه، وإرضاءً لها.

لاحت إلى عمر من بعيد، نافورة من المياه مرصَّعة بالأحجار الملونة، بدا له المشهد مألوفًا، وما فتئ إلا أن تذكر حلمه، ببعض التفاصيل، وبدت كلمات الشيخ الكبير تترد على مسامعه "تذكر سيتحقق الحلم برؤية أول علامة"، مما يعني أن الرؤيا ستتحقق تِباعًا مع أول علامة يراها، ترجَّل سريعًا من مكانه، إلى أن استقر بجانب النافورة الصغيرة تمامًا كما رآها في رؤيته، ليجد منقبي الآثار على مقربة، يبعد عنهم مسافة صغيرة، بدأت تقشعر أوصاله، يقترب في حذر وهو يسأل نفسه، "هل سيتحقق الحلم"؟!

هو الآن أمام زملائه الذين سرعان ما ألقوا نظرة خاطفة على الحديقة، مجتمعين وعمر حول منقبي الآثار العراقيين، يظهر لهم مشرف الرحلة

تصريح التواجد كمنقبي آثار من القاهرة في منحة استكشافية لمدة أسبوع مر منه ثلاثة أيام، يرحبون بهم يسألهم عمر بكلمات متلعثمة ومترددة:

- هل هناك كتاب، مكتوب بخط قديم؟!

ليكشف أحدهم لعمر الجرة المملوءة بعملات ذهبية تعود إلى عصر "الخليفة المأمون"، وكتاب قديم مكتوب بالخط "الكوفي"، ملفوف بقطعة من جلد حيوان الماعز، ومعقود بحبل مصنوع من ليف النخل، يرتدي عمر القفازات الخاصة ويمسك بالكتاب في محاولة منه لقراءة ما خُطَّ فيه، فمعظم الحروف غير واضحة، والحبر المكتوب به الكتاب عفا عليه الوقت الذي مر، لم يفهم من الكتاب سوى آخر صفحة، تعلم جميع الخطوط القديمة في السنة الثالثة في الكلية، ويستطيع قراءة جميع الخطوط بحرفية وببراعة، عرض عليه أحد المنقبين العراقيين أن يذهبا به إلى المعمل، ويضعانه تحت الميكروسكوب، ولكن رفض عمر معللًا أن الوقت لايسمح بالانتظار، قائلًا:

- سأحاول جاهدًا قراءة المكتوب، استعارعوينات العم ظافر وبدأ يقرأ بإمعان وهدوء:

"قاتل الله من قتلوا أخي بسيفي، وقاتل الله الشيطان الذي سرق جسد أوفى جنودي، ليقتل أخي ...لا سامحكِ الله يا "سُلامة"!...

بدأ يقرأ الكلمات بصعوبة ليبحث عن "سُلامة" سريعًا في محرك البحث على الإنترنت، يجدها جارية الخليفة "موسى الهادي"، الأخ الأكبر لهارون الرشيد وكان يحبها ويفضِّلها على جميع جواريه، حتى رفضتها أمه "الخيزران" رفضًا شديدًا وأمرت حُرَّاسَها بسجنها، إلى حين عرضِها في سوق النخاسين ليستبدلوا بها جارية جديدة أو يشتريها أحد التجار، وهذا كان سببًا من أسباب الخلاف بينها وبين ابنها موسى الهادي، الذي سرعان ما ذاع وتطور ذاك الخلاف بينه وبين والداته الخيزران.

بعد أن أكمل عمر هذه السطور على مؤشر البحث وهو في حديقة بابل ظل يتناقش هو وزملاؤه عن الأمر، مستمعًا لكل الآراء، صمت هنيهة وحاول أن يعتصر ذاكرته، ليفتش عن العلامة أو الإشارة التي كان يشير بها المأمون له في رؤيته، مستنتجًا من النقاش:

أن الكتاب بخط المأمون، يبرئ فيه نفسه من قتل أخيه الأمين وأن الشيطان كان ملتبسًا بأحد جنوده، وأن "سُلامة" هي زوجة الحكيم التي اشتراها من السوق، بعدما عرضتها الخيزران للبيع دون إذن ابنها "موسى الهادي"، الذي تُوفي قبل دلوفها من القصر إلى سوق النخاسة، بقي أن يعلم عمر وزملاؤه سبب ذكر "سُلامة" في كتاب المأمون، ولم يُدفن هنا تحديدًا تحت الجرة المملوءة بالذهب. يتأمل عمر كل الأحواض النباتية حوله وتلك النافورة الصغيرة!

بدأ النهار ينسحب خِلسة ويحلُّ الليل، وعمر يصر على وجوده في المكان وأن لديه إحساسًا قويًّا يسيطر عليه، أن هناك ما لم يتم اكتشافه في هذا المكان بعد وأنه يحوي الكثير من الأسرار، شعر العم ظافر بالجوع، فهُرِعَ أصدقاء عمر للبحث عن مطعم قريب لشراء بعض الأطعمة السريعة التي تسدُّ جوعَهم، اقترح عمر أن يذهب معهم، تاركين باقي فريق العمل يفتشون عبر أجهزة الكمبيوتر المحمولة في المراجع الإلكترونية والكتب.

يسمعون أزيز تهشُّم الحصى تحت أقدامهم، يتأملون الفراغ وصوتًا غريبًا يأتي من بعيد، اشتعلت الأجواء برودة جعلتهم يقتربون من بعضهم في أثناء سيرهم يلتمسون بعضًا من دفء أنفاسهم التي تلهث برودة؛ في حين أشعل فريق المنقبين النيران بالقرب من الحديقة، وقبل أن يصل عمر وزملاؤه إلى العمار في أثناء سيرهم، هجم عليهم أسراب من الغربان السوداء بأصواتها الناعقة صاخبة ومخيفة ويكأنها تنحيهم جانبًا، أو أن هذا المكان مستقرها وهم المعتدون، لاح لعمر أنها تستهدف أحدًا آخر، عندما أسرعت مجتمعة تتجه تجاه فريق المنقبين القابع في المساحة الصحراوية خارج الحديقة، فتلتفت قوائمهم بحذر ليحددوا اتجاه الغربان، اقشعرت أبدانهم وهم

يُهرولون تجاه المنقبين خوفًا عليهم من الغربان، بيد أنها أخفت معالم النار من كثرة سوادها الحالك، كتلك "الأمينة" التي تشتهر في بلاد الأرياف، التي تتقولب على نفسها ولا يُرى منها سوى بعض الأدخنة وقبسٌ صغير من النيران الحمراء.

ساد الهرج والمرج وارتاب الجميع يُهرولون ناحية السيارات التي نقلتهم من بغداد إلى حدائق بابل المعلقة، تاركين تلك المعدات قائمة من هول الموقف، كان الموقف مربكًا وصادمًا للجميع، اختفت الغربان فور نزوحهم إلى السيارات وكانت المفاجأة!!

السيارات لا تعمل كأنها بلا بنزين، واختفت شبكات الهاتف بشكل مفاجئ..

ولم يرَ أثرًا لإنسان أو حيوان في المكان. ساد الصمت!

ظلَّ الجميعُ مترقبًا، يدَّعي ثباته وينفي خوفه، فضحَهم اصطكاكُ قوائمهم رعبًا، وأنفاسهم التي تلهث مع سرعة دقات قلوبهم المتزايدة، يجلسون جميعهم في تلك الحافلة التي تتحمل أربعة عشر راكبًا، بدأ عمر يتلو آيات من القرآن ويسمّي اللهَ كثيرًا، ومنهم من لم يستطع الحديث أصلًا مكتفيًا بالصمت. بدأ الكل يهدأ لتفصل كهرباء الجميع ويدخلون في سباتٍ عميق كأصحاب الكهف، ويكأنهم أُغشي عليهم تمامًا، لا يشعرون بشيء، تحاوطهم الصحراء التي اختفت معالمها بفعل الظلام الحالك، اختفت السماء، فلا يظهر أثر لنجوم أو بصيص من ضوء القمر المعتاد، اختفت الحديقة كاملة وتحولت إلى شيء مبهم لا ملامح له، اختفى صوت حفيف الأشجار، وصوت قنوات المياه الصغيرة المثبتة لري الحديقة، ذهب الزائرون والحراس والجميع إلى مكان مجهول ولم يبق سوى هذه السيارة بالطلاب الخمسة ومشرفهم وستٍّ من منقبي الآثار المشهورين في العراق، "كزاهي حواس" في مصر، ينتظرون مصيرهم المحتوم!

مع أصوات شقشقة العصافير، وصوت طائر اللقلق، وصوت طرقات متزايدة على زجاج السيارة التي عُثر عليها أخيرًا وهي سيارة المنقبين

بداخلها عمر والمشرف على منحة كلية الآثار، ومع شعاع الشمس الذي رصد أعينهم، يستفيق الجميع من ذاك السبات العميق، ازدرد عمر ريقه بصعوبة، معتدلًا على مقعد السيارة هو والجميع، التي وشت وجوههم المرتعدة أمرًا جللًا حدث لهم، فتح عمر سريعًا باب السيارة ليجد العم ظافر خارج السيارة هو وبعض أفراد الشرطة، بعد اختفائهم ليلة أمس ليعثروا على السيارة بجانب بئر قديم جفَّ من المياه لأسبابٍ غير معلومة، سأل العم ظافر عمر "ما الذي حدث لكم أين اختفيتم"؟!....

بحثنا عنكم في كل مكان. قال عمر:

- لم أذكر شيئًا من ليلة أمس سوى منظر الغربان الكثيفة المرعب، كرجل ضخم الجثة شاخص بملابس حالكة السواد!

قال العم ظافر:

- استأذنتهم في الذهاب إلى الخلاء، ورجعت من الخلاء فلم أجد أحدًا منكم سوى النيران مشتعلة، حاولت الاتصال بكم مرارًا وبحثت في كل الأماكن القريبة، حتى هاتفت الشرطة عندما سرى إلى داخلي أن هناك أمرًا خطيرًا. حمدًا لله على سلامتكم، كنت أخاف أن يسألني عنك والدك يومًا، وقتها كنت سأتمنى أن تنشق الأرض وتأخذني في كنفها، وأرتاح من ذاك العذاب الذي احتل أرضي وأهلي بلا سابق إنذار!

بكلماتٍ حازمة قال المشرف:

- سنعود إلى القاهرة على الفور، سأتحدث مع الجامعة في التوِ واللحظة، لا ضرورة للبقاء تبقى يومان من الأسبوع المحدد، لن أنتظر في بغداد دقيقة واحدة بعد ما حدث إن كانت على روحي فلا يُهم، ولكن يهمني أرواح الجميع التي استأمنتني عليها الجامعة، وبالطبع أهلوهم. ووجَّه كلمات مقتضبة مشيرًا لعمر، قائلًا:

- يا عمر سنعود، الشيخ الكبير معه حق، دخولك هذه المنطقة الشائكة سيفتك بالجميع الكبير والصغير، وأولئك الأشخاص الذين ليس لهم علاقة بالقصة، هز عمر رأسه مستسلمًا لرأي مشرف الرحلة، الذي مالبث سوى أخرج هاتفه ليجده مغلقًا، فيشير للجميع ويردد "هل يخبرني أحد من قفل هاتفي"؟

ليشير عمه ظافر، ويقول له بصوت هامس: الجانُّ!!

يدافعون عن السحر الذي دُفع لهم مقابله قربانًا من الحيوانات النافقة، وجلود الثعابين. وبصوت يظهر به اشمئزازه:

- وعروق يدٍ بشرية، وكأن المياه سرت مجددًا في أرض الأمل جانب عمر، وعلى رغم ما حدث، يقول له بحماس "كيف عرفت كل هذا"؟!

قال: كنت أهاتف الشيخ الفلسطيني، طيلة الليل وهو من طمأنني عليكم وقال لي سيفعل الجانُّ بهم أمرًا يجعلهم يتراجعون عن وجهتهم، كما أخبرني أن الجان وملوكه في حالة من الرعب منذ أمس، وخاصة أن من سرق كتاب المأمون واحد منهم، من قديم الزمان، محاولًا طمس الكلمات التي تحويه، لكنه لم يستطع طمس الجمل التي تتضمن اسم الله عز وجل، بسبب السحر التي تسببت فيه "سلامة".

برقت أعينُ الجميع دهشةً مما حدث، بدأ يعترض البعض نادمين على سفرهم إلى تلك المنحة، ومنهم من تمرد على الكلية؛ لأنها سبب في ماحدث له في بغداد، ومنهم ماسرى الأدرينالين في جسده مستمتعًا بالتجربة، وأنه كان جزء من فيلم حماسي كان يتمنى أن يصبح أحد أبطاله.

أما عمر وباقي المنقبين فأصروا على التنقيب في المكان مجددًا، ليفتشوا عن تلك الأعمال، وربما يستطيع إنقاذ أخيه وإنقاذ أبيه من أن ينفطر فؤاده على أحد أبنائه، كما انفطر سابقًا على أخيه الأصغر.

قال العم ظافر إن الشيخ الفلسطيني كان يدرس الأمر منذ مدة، مؤكدًا أن الأعمال ستكون موجودة في المكان الذي تم العثور عليهم فيه، وأن الجارية كانت تستخدم السحر الأسود البابلي القديم المعروف بسحر "الكابالا" وعلمتْ بذلك الخيزران، فخافت على نفسها وعلى أولادها وحاشيتها فعرضتها في سوق النِّخاسة للبيع، فاشتراها الحكيم سرًّا وتزوجها، وبدأت في الانتقام من سيدتها "الخيزران" بمحبوبها الخليفة موسى الهادي، وأشاعت بين الجواري أن الخيزران قتلت ولدها الهادي والحقيقة أنها لم تقتله! ومات ميتة طبيعية بسبب (قرحة المعدة) التي تسببت له بحمى ومات على إثرها، ورث المأمون ذاك المرض العضال الذي مات هو الآخر بسببه، وعلى فراش موت الحكيم طلب حضور الخليفة المأمون، وقصَّ عليه الحقيقة كاملة، وأن زوجته "سُلامة الجارية" البابلية، أخذت بعضًا من دماء الخليفة الهادي سرًّا، وكتبت بها على جلد حيوان (أحفاد الخيزران) قاصدة كل من يحمل دماء "هارون الرشيد" حقدًا وكرهًا له ولأنها كانت تفضله على أخيه الهادي، كان حلمها أن تصبح زوجة الخليفة ولكن فشلت خطتها بفعل الخيزران التي سرعان ما فطنت لها.

لاح إلى عمر البئر القديم بجانبه نافورة حجرية صغيرة أشار لها المأمون في حلمه عندما نزع عن عمامته ليستقر بها إلى جانب النافورة، سرعان ما يتجه المنقبون ليحفروا أسفل النافورة، على عمقٍ قريب، وفجأة، برق شيء لامع له ضوء قوي ازداد وضاءة مع انعكاس ضوء الشمس عليه، فإذ بالجوهرة الفيروزية، التي كانت تتوسط عمامة المأمون السوداء، وهي بالفعل كانت مفقودة وتعدُّ أثرًا قوميًّا، ليرى بعدها قطعة من الجلد وبعض العظام، ليقرأ الجميع على قطعة الجلد رموزًا غير مفهومة وجداول تحوي أرقامًا باللغة السريانية والعبرية، وحروفًا باللغة العربية مكتوبة بالدماء

التي تحولت إلى اللون البرتقالي، متَّشحة بلطخات سوداء بخط قديم. تأملها عمر، ليجدها:

"أ- حـ- ف- ا- د- ال- خ- ي- ز- ر- ا- ن".

كان أحد المنقبين خبيرًا في قراءة الرموز وخاصة رموز السحر، فقال لهم: السحر يستهدف "أحفاد الخيزران".

أسرع العم ظافر، قائلًا: لابد من حرق تلك الأشياء على الفور كما قال الشيخ الفلسطيني. قال عمر لهم: اسمحوا لي بفعل هذا الأمر بنفسي! أسرع عمر بإشعال النيران في تلك الأشياء التي وجدوها ولملموا رمادها ليلقوا بها في النهر.

ابتهج الجميع سرورًا فاحت به وجوههم المنهكة، استقل الجميع سياراتهم عائدين، أخذ عمر قرار السفر سريعًا ليطمئِن أبيه وأنه أزال تلك الشوكة التي كادت أن تستقر في حلقه للأبد، ويتوراثها أجيال قادمة.

يصاحب مشرف الرحلة الذي أخذ قرار بالرجوع إلى مصر من فور عودته من مدينة بابل، التي رأى فيها أسوأ ليلة مر بها في حياته، كما ودع عمر العم ظافر محتضنًا إياه، وعلامات الشكر والامتنان على وجهيهما، قال العم ظافر في أسًى:

- أبلغ سلامي لأبيك وإخوتك وفي انتظار زيارتكم إلى بغداد في بيت جدك الكبير قريبًا كعائلة واحدة. ربَّت على كتفه، قائلًا: أتمنى لك كل الخير يا بُني، انتصارك على السحر ما كان إلا بسبب يقينك وإصرارك، لم تفقد الأمل ولم تيأس على رغم كل المؤشرات الصادمة التي جعلت العقل لا يفكر إلا بها؛ فصرنا نتباكى على أحزاننا واستسلمنا ولم نسعَ سوى إلى اليأس والفشل! أما رئيس بعثة الآثار العراقية، فقال لعمر: مازالت هناك بعض الأمور المجهولة، ولنا الشرف أن تكون ضمن فريق المنقبين في بغداد!

قال عمر: هذا سيكون عملي في المرحلة القادمة في مصر فلا أجد فرقًا بينهما، شكره عمر على تعاونه وإنسانيته، وعلى الموافقة على حرق أثر، على اعتبار أنه شيء مؤذٍ مهلك للأنفس ولم يتردد في التخلص منه!

دعاهم عمر لزيارته في مصر لتبادل الخبرات وللاستفادة من وسائل التنقيب، لاسيما الآثار الإسلامية تحديدًا مجال تخصصه.

وأخيرًا وصل الجميع سالمين إلى أرض مصر، وفي ساحة الانتظار يقف جميع أهالي الطلاب يستقبلون أبناءهم بعد حديث الصحافة والإعلام عن اختفائهم في ظروف غامضة! يرن هاتف عمر ليجد أنها أمه تتحدث بصوت غريب وتبكي، لا يسمع عمر كلماتها فيهرول إلى أقرب مكان يستطيع أن يسمعها فيه..

فتقول له بصوت باكٍ:

- عمر، أخوك في خطر، أغث أخاك ياعمر!..

والدك سافر إلى القاهرة عندما سمع بالأمر.

- اهدئي يا أمي.. "رويدًا رويدًا، لابد أن أفهم بهدوء ماذا حدث ليامن وأين هو"! قالتها بصعوبة ولكن أدركها عمر بعد سؤالها مرة تلو الأخرى:

- قرر أخوك الانتحار يا عمر!..

اتصلت بي والدة صديقه منذ نحو ساعة، وقالت لي إنه ترك رسالة أنه سينهي حياته اليوم!

- ما هو اسم صديقه يا أمي؟ أخبريني رجاءً!

- لا أعلم، لا أذكر تفاصيل!

المهم أخوك، أريد أن أطمئن سيتوقف قلبي خوفًا!

ـ أمي ما هو المكان، هل أخبرتْكِ؟

ـ تقول البرج، لاأعلم أي برج!

ـ اهدئي يا أمي، سأذهب إلى هناك على الفور..

لا تقلقي، ستكون الأمور بخير، أحسني الظن بالله!

ـ حسنًا يا بني، هاتفني عندما تصل، يُسارع الدقائق والثواني، تلك اللحظات التي ينتظر فيها سيارة أجرة، تقلّه إلى برج القاهرة، كأنها لم تمر، يمزقه القلق والتوتر، كادت عيناه تخرج من مِحجريهما، وكادت دقات قلبه تتوقف، حقيبة الذكريات لم يكن في جعبتها مواقف حماسية كالتي بينه وبين أصدقائه، فهما دائمي الشجار، إلا أنه يخاف من فقده، وذاك الألم الصامت على وجه أبيه، وعيناه التي تبكي فراق أخيه الصغير، جعلت عمر يرى قيمة أخيه، تلك القيمة تحمل في طياتها معاني لا تُقال ولكنها تظهر وقت الشدائد!

فضلًا عما حدث له في بغداد، وكتاب المأمون، وتلك الرسالة الروحية من ذاك العصر القديم، فهي ليست مصادفة!

وأخيرًا استقل عمر تلك السيارة التي انتظرها دقائق معدودة بدت كالساعات، بدا الطريق مظلمًا وموحشًا، على رغم أعمدة الإنارة على الجانبين، يجتاز السائق الطريق وعمر على أحرّ من الجمر ويكأن الطريق سلم كهربائي ممتد إلى السماء السابعة ليس له نهاية، يصعد به إلى أعلى ولا ينعم بنعمة الوصول!

من شدة القلق الذي يعلو وجهه سأله السائق، وكان شيخًا كبيرًا تجاوز عقده السادس:

- مابك يابُني؟! قل لي ما الذي يربكك لهذه الدرجة هوّن على نفسك لكل عقدة حل إن شاء الله!..

كل ما عليك، أن تؤمن من داخلك أن الله سينجيك منها بلا شك، وسترى من عجائب رحمته وقدرته مالا تصدقه ولاتتوقعه... قاطعه عمر، قائلًا:

- إن شاء الله. ادعُ لنا أن ينجينا الله منها!!

دُهش السائق، وقال بعفوية دامغة:

- ينجينا!!
وهل هناك آخر في السيارة سوانا؟

قال عمر بصوتٍ قلق، ينظر إلى عيني الرجل في المرآة الأمامية للسيارة "بل ينجي أخي من الموت"!..

وبنجي قلبي من الخوف والقلق!

إذا حدث لأخي مكروه لن أسامح نفسي طيلة حياتي!

تأثر الرجل الكهل بشدة، وقال له:

- الله كريم؛ ارضَ يا بني بقدرك أين ما كان فلا تعلم أين يكمن الخير، لمح من بعيد ضوءًا شديدًا، شعر عمر باليأس وبدأ ينهار داخليًّا، اغرورقت عيناه من الدموع عندما رأى وميض سيارات الإسعاف، وهذا الجمع الغفير من البشر يقفون متأثرين!

سأل سائق التاكسي، رجلًا آخر يقف على مقربة من المكان. قال له:

- إن شابًّا ألقى بنفسه من فوق برج القاهرة، خرج عمر من السيارة ليجثو على ركبتيه، ويجعر بأعلى صوته "أخي يااااامن"!!

ليلتفت إلى كلماته شرطي، ويقول له: "هل تعرفه"؟!

يقول له عمر وهو يبكي بشدة:

- نعم، أعرفه جيدًا، أخي...إنه أخي!

ليعلو صوته في المكان مجلجلًا:

- مقصر في حقك يا أخي لم أحاول أن أتحدث معك، أو أساعدك لتتجاوز تلك الحالة التي كنت عليها قبل السفر، لمْ تُسرق كُليتك يا أخي!

ليتني أخبرتك الحقيقة!

سمع صوتًا يناديه "عمر ...عمر"!

فهو صوت يستطيع أن يميزه جيدًا!

ليستدير استدارة سريعة، وهو يفرك عينيه ليجد أنه أخيه "يامن" ظن لبرهة أنه يتوهم، إلى أن أدرك بعينيه أباه الذي يضع يده على كتف أخيه يامن، الذي بدا وجهه شاحبًا يميل إلى الصفرة!

احتضنهما عمر بشدة، تفيض أعينهم دموع مختلفة ليست حزنًا ولا فرحًا، وإنما دموع النجاة من مصيرٍ مجهول، في موقف لفت انتباه المارة حولهم وتناقلته وسائل الإعلام.

- حمدًا لله على سلامتك يا غالي، اختبرني الله بك وكان اختبارًا صعبًا وموجعًا. أردف يامن حزينًا يمهّد لأخيه فاجعة ربما تفقده اتزانه، قائلًا:

- عمر: من ألقى بنفسه من أعلى البرج

هو صديقنا كريم!

وأنا من اقترحت عليه السفر، بعدما فشلت محاولاتي في أن أخرجه من عزلته منذ سفرك إلى بغداد!

عرضت عليه أن نسافر إلى القاهرة لزيارة الحسين وخان الخليلي وبعض المعالم في القاهرة كنوع من الترفيه..

فوافق دون تفكير وهو من أشار عليَّ بزيارة البرج!

كنت سعيدًا عندما أخبرني أبي بأن الكلية التي استئصلها الطبيب لم تُسرق كما توقعت.

والحقيقة أن الطبيب أخذ القرار الصحيح باستئصالها في هذا الوقت المناسب؛ لأن التحاليل أثبتت أن بها جزءًا سرطانيًّا من النوع الشرس الذي ينتشر سريعًا، الحقيقة أن الطبيب فطن لذلك وأخذ القرار سريعًا.

بكى يامن بشدة، وقال:

- كم كنت مخطئًا، حبسني الوهم وكبلني وجعلني أسيء الظن بمن حولي!..

مضطهد من الجميع، حتى من أبي الذي رأيت دموعه وسمعت دعواته!..

رحمك الله ياصديقي، كنت في نفس حالتك من أسبوع وكنت أنوي الإقدام على الانتحار!..

ولكن منعني صوت أبي وهو يدعو في الصلاة، وكان الدعاء يشملني، بدا لي أبي الذي كنتُ أبغي!

تتساقط دموعه على صدري كقطعٍ من الجمر!

قبلت يديه بعينيّ، وعهدتُ على نفسي أن يراني في أفضل حال!

قال عمر بصوت منكسر، يعتلي قلبه حجر يؤلمه ويمنعه من مواصلة التنفس:

- تهشُّم النفوس كما الزجاج، أشد وأقسى من السحر الأسود!

رحمك الله يا صديقي وغفر لك!

لو كنت هنا في مصر لكنت أعدت لك بسمتك كما فعلت من قبل!..

ولكن هو قدر الله!

ردد عمر كلماتٍ من الشعر لشاعر عراقي مشهور:

لم يبق عنْدي ما يبتزه الألـمْ..

حسبي من الموحشات الهمُّ والهرمْ.

لم يبق عندي كفاء الحادثات أسًى..

حين تطغى على الحران جمرتُه.

فالصمت أفضلُ ما يُطوى عليه فمْ.

ما أحلى صديقي أن يكون أخي!

وما أحلى أخي أن يكون صديقي!

تمت

مها البُساطي